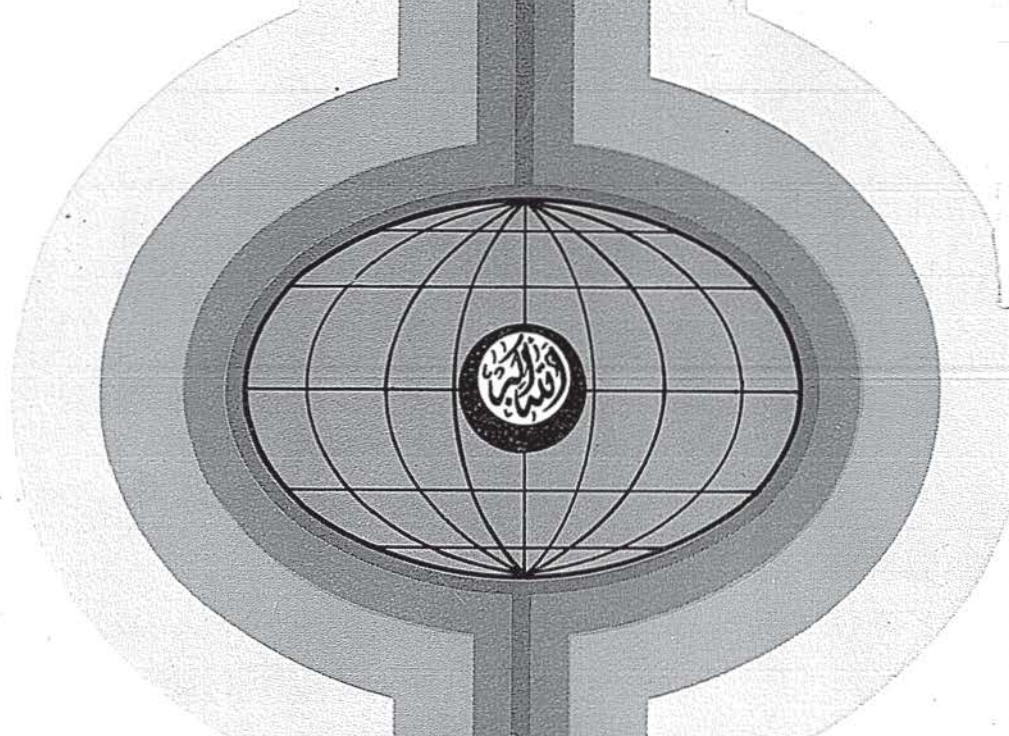


الإسلام اليوم



- المنهجية الإسلامية، نظرة إلى الفقه.
- ميثاق الإيسيسكو.
- الأردن / أندونيسيا.

- نى هذه الحرب العراقية الإيرانية ؟
- الإنجاب بقواعد الأخلاق.
- التاريخ في تراثنا الإسلامي.

العدد 5
ذو القعدة 1407 / جويلية 1987

مجلة دورية تصدرها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو

نحو منهجية جديدة في فقه التاريخ

تفسير التاريخ في تراثنا الإسلامي

عبد الحلیم عویس^(٥)

أ — مرحلة الأصول الموثقة :

عندما استقرت قواعد الحضارة الإسلامية الناشئة بعد نزول القرآن الكريم (الإطار الحضاري والتشريع والعقيدة) وبعد التجربة العملية التي قدمها الرسول عبر ثلاثة وعشرين عاما (السنة) وشملت سائر أحوال الحياة الفردية والاجتماعية والإنسانية. وعندما تغيرت مسيرة الحضارة البشرية بظهور طريق جديد للحضارة ثبتت معالمه ووضحت خصائصه، ونجح المسلمون في أن يقدموا اتجاها جديدا في التاريخ من خلال هذا الطريق الجديد.

وعندما استقر هذا المنحى الذي غربل الموروثات الحضارية السابقة ونفى منها ما نفي وأثبت ما أثبت، وأفرز — من خلال هذه الغرلة — حضارة إسلامية أصيلة تعبر عن اتجاه إنساني جديد في التاريخ — بدأ المسلمون يهتمون بالتاريخ كعلم — وكان طبيعيا أن يتجه اهتمامهم للتجربة الفذة التي عاشوها، وهي تجربة (السيرة النبوية) التي لا تمثل — بالنسبة لهم — مجرد (تاريخ) أو (عصر فتوحات) بل تمثل بالنسبة لهم (المرحلة) التي صنعوا التغيير التاريخي من خلالها، وتمثل لهم

(٥) أستاذ مشارك بكلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، المملكة العربية السعودية.

أيضا قصتهم الرائعة مع الحضارة. إن سيرة الرسول ﷺ ليست سيرته وحده وإنما هي سيرته معهم، وبهم، ومن خلاهم. فهم المادة الخام التي صاغها، وهم المعدن الذي صهره، وهم الطاقة التي فجرها وحول اتجاهها من السلب إلى الإيجاب، ومن الشر الضيق إلى الخير الواسع، ومن الآفاق الشخصية والقبلية والقومية إلى الآفاق الإنسانية والكونية والأخروية.

وكان طبيعياً أن يحفلوا بالسيرة، وأن يتنافسوا في تدوينها، وأن يسجلوا سنة الرسول قولاً أو فعلاً أو تقريراً أو صفة، كلمة كلمة، وساعة ساعة. وليست المغازي إلا جزءاً من هذه السيرة، فهي القوة في مواجهة قوة الشر، وهي الحديد الذي يفل الحديد، وهي العلاج للشطر الآخر من الطبيعة البشرية، ذلك الشطر الغريزي والحيواني واللا أخلاقي. وكل دعوة تتجاهل القوة هي دعوة سلبية طوباوية أسطورية لا تعرف الطبيعة البشرية، ولا القوى الشريرة الموجودة بالضرورة، على هذه الأرض. لكن القوة علاج عند المرض، وعند الاستعصاء على الحل الأصيل، والحل الأصيل هو الدعوة بالحكمة والحب والأخلاق والرحمة. وهكذا كانت السيرة (المرحمة) أولاً، ثم كانت المغازي (الملحمة) ثانياً.

لقد سجل المسلمون السيرة والمغازي أوثق تسجيل وأروعها، كما سجلوا كملحقات لها، أخبار الجاهلية وأيامها وأنسابها وأديانها وجوانبها الحضارية المختلفة، كما سجلوا أيضاً أخبار العرب قبل الإسلام وتاريخ الأنبياء السابقين، وتاريخ الفرس والروم وبعض الأمم الأخرى التي سمعوا بها.

وقد كانت مصادرهم (المشاهدة) و(المعاينة) و(الكتب المقدسة) السابقة وما يرويه الإخباريون بالتواتر، والمهتمون بالأديان. أما تاريخ (السيرة والمغازي) فقد كانوا صانعيه، وبالتالي فقد كتبوه بأعمالهم قبل أن يكتبوه بكلامهم. وقد كان المصدر هم أنفسهم ولم يحتاجوا إلى مصادر من خارجهم، وقد توارثوها عبادة ونموذجاً قبل أن يتوارثوها تاريخاً.

وقد كان (السند) و(الناقل) بين التعديل والتجريح هما الركيزة التي اعتمدوا عليها في نقل السيرة والمغازي لكونهما عبادة وتاريخاً في آن واحد.

لقد اشتهر في مدرسة السيرة والمغازي عروة بن الزبير بن العوام (ولد سنة 23هـ) وأبان بن عثمان بن عفان (ولد سنة 20هـ) ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهري، والوليد بن مسلم أبو العباس الأموي (ت 195هـ) وسعيد بن سعد

بن عبادة الخزرجي (ت 123) وسهل ابن أبي خيثمة المدني الأنصاري (ولد سنة 3هـ) وشرحيل بن سعد (ولد سنة 24هـ) ووهب بن حنبل (ت 114هـ).
وتوالى جيل الفتوحات وصناعة التحول التاريخي : عاصم بن عمرو بن قتادة (ت 119هـ) وأبو روح يزيد بن رومان الأسدي المدني من موالي أسرة الزبير بن العوام (ت 130هـ) ومحمد بن عبد الرحمن بن نوفل الأسدي ربيب الزبيرين (ت 131) ومحمد ابن مسلم بن شهاب الزهري (ت 134) ومحمد بن السائب الكلبى (ت 146هـ) ومصعب الزبيرى (ت 233هـ)، وغيرهم كثير⁽¹⁾.

ثم ظهر — من بعد هؤلاء — جيل المؤرخين الذين حملوا راية تقعيد علم التاريخ واستقلاله، ومن هؤلاء ابن بكار الضبي (ت 222) والجمحي أبو عبد الله محمد ابن سلام البصري (ت 231هـ) ويحيى بن معين البغدادي (ت 233هـ) والخزاز أحمد بن الحارث (ت 258هـ) ثم المحدثون الذين حملوا أعظم أمانة في التاريخ الإسلامي، وهي نقل كلام الرسول صحيحاً عن طريق التفرغ لجمعه وتمحيص صحيحه من موضوعه، وهؤلاء هم : محمد بن اسماعيل البخاري (ت 256هـ) وهو صاحب أصح كتاب بعد كتاب الله في تاريخ المسلمين، وأول الكتب الستة المعتمدة لدى المسلمين، وله — إلى جانب صحيح البخاري — التاريخ الكبير الذي جمع فيه تراجم لنحو أربعين ألف ترجمة لرجل وامرأة من رواة الحديث، إلى جانب التاريخ الأوسط والتاريخ الصغير، والتاريخ في معرفة رواة الحديث، والتواريخ والأنساب وثاني المحدثين بعد البخاري هو الإمام مسلم (ت 261هـ)، وثالثهم الإمام الترمذي محمد بن عيسى السلمى (ت 279هـ) ثم أبو داود (ت 375هـ) ثم النسائي (ت 303هـ) ثم ابن ماجه (ت 275هـ) ولقد قدم لنا هؤلاء السيرة مزوجة بالتاريخ، وقدموا لنا كلام الرسول (موثقاً) أعظم توثيق، ولعل توثيقهم — بل هو كذلك — لم يتوافر لكتب يزعم أصحابها أنها مقدسة. لقد كانوا يختلفون على (الكلمة) ويروونها بالروايات المختلفة التي وردت بها، ولم يسمحوا لأنفسهم بأدنى تغيير أو استعمال (الأسلوب الخاص) أو الإيراد بالمعنى، كما كتبت كتب (مقدسة) كثيرة بأقلام تلامذة صاغوها بأسلوبهم الخاص، وبما بقي في أذهانهم من معلومات دون استعمال (للسند) أو (الجرح) أو ملاحقة للألفاظ

(1) انظر في دراستهم ومحاولة حضرهم د/ شاكراً مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون 1/113 وما بعدها، وانظر د/ سيد اسماعيل الطائف.

نفسها حتى تصل الحقيقة — كما هي — دون ظلال شخصية أو تعبيرات خارجية — بالتأكيد — لن تستطيع التعبير عن الحقيقة كما وردت بألفاظها الأصلية القانونية.

إن هذه المرحلة أساسية لتفسير التاريخ الإسلامي، لأن التفسير الذي يقوم على (حقائق صادقة) غير التفسير الذي يقوم على (معلومات) اختلط فيها الحق بالهوى وامتزجت فيها الرؤية الشخصية بالحقيقة الموضوعية.

وهذه هي القيمة التاريخية الكبرى لمرحلة (المنهج الحديثي) الذي سيطر على تاريخنا في مراحل تدوينه الأولى. واعتمادا على هذا المنهج فإن التصور الإسلامي للحركة التاريخية يقف على أرض صلبة من الأصول الثابتة والحقائق الموثقة.

ب — مرحلة التدوين الموسوعي وبذور تفسير التاريخ :

1 — تفسير التاريخ في المشرق :

لقد توسعت دائرة البحث التاريخي بعد عصر الأصول والتوثيق، وظهرت مدارس للتدوين التاريخي في المدينة ومصر والشام والعراق.

وبما أننا لا نعلم إلى الاستقراء التاريخي فسندكتفي بمحاولة تتبع بذور تفسيرات التاريخ المبكرة في المشرق الإسلامي والمغرب الإسلامي — بصفة إجمالية — حتى نصل إلى مرحلة التألق والوضوح التي مثلها عبد الرحمن بن خلدون بتصوره التنظيري الذي وضعه في مقدمته العالمية الشهيرة. كما مثلها في المنهجية التسجيلية الشمولية للتاريخ محيي الدين الكافيجي (ت 879هـ) صاحب (المختصر في علم التاريخ) وشمس الدين السخاوي (902هـ) صاحب (التوبيخ لمن ذم أهل التاريخ).

ويعتبر ابن جرير الطبري (ت 310هـ) البداية البارزة لمرحلة التدوين الموسوعي في المشرق، وقد قدم للمكتبة التاريخية كتابه العظيم (تاريخ الرسل والملوك) (10 مجلدات) الذي ينظر إليه على أنه إمام في هذا الباب. وقد غلب على الكتاب المنهج السردي التقليدي، دون الوقوف بدرجة مقبولة عند الدلالات التاريخية.

فالتاريخ في رأيه كلام في مسائل مادية حدثت، وأخبار ماضية وقعت، وهي وإن كانت يجري عليها الصدق والكذب إلا أنها تستخرج بالرواية والأخبار لا بالعقول والأفكار.

وفي رأي الطبري أيضا أن التاريخ يعتبر مجرد جمع للحوادث برواياتها المختلفة،

دون ترجيح أو تحقيق لتناقضاتها أو تأثير على القارئ بالحكم عليها⁽²⁾، كما يعتبر هو في صدر كتابه الكبير بقوله: (وليعلم الناظر في كتابنا هذا أن اعتمادي في كل ما أحضرت ذكره فيه بما اشترطت أن راسمه فيه إنما هو على ما رويت من الأخبار التي أنا ذاكرها فيه، والآثار التي أنا مستدل إلى روايتها فيه دون ما أدرك بحجج العقول واستنبط بفكر النفوس، فمهما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضيين مما يستنكره قارئه أو يستبشعه سامعه، فليعلم أنه لم يؤت من قبلنا، وإنما أدينا ذلك على نحو ما أدّى إلينا⁽³⁾). لقد بحث الطبري في كتابه تاريخ (الخليقة) منذ (البدء) المتمثل في هبوط آدم من الجنة، وقصة قابيل وهابيل وتاريخ الأنبياء منذ نوح وإبراهيم ولوط، وذكر تاريخ الفرس والروم، وتحدث عن السيرة النبوية بدءاً من ميلاد الرسول حتى بداية القرن الرابع الهجري.

ومن حسنات تاريخ الطبري أن مادته من أوثق المواد فيما يتعلق بالتاريخ الإسلامي لاعتماده منهج (السند)، وأنه قدم معلومات كثيرة ودقيقة عن تاريخ الفرس والروم، وامتاز بالحياد والإنصاف والموضوعية. لكن منهج النقل الذي اعتمد عليه — مع حسناته — كان يحتاج إلى إضافة منهج نقد (المتن) أو ما يسمى بالنقد الباطني التاريخي للأخبار على ضوء العقل والمنهجية العلمية ومنطقية الأشياء. كما أن اهتمامه بالتاريخ كان محصوراً بالدائرة السياسية.

فهو ما رفض الطبري أن يلتزم به، بل أصر — بوضوح — على منهج السند (النقل) وحده، فما صح (نقله) عن طريق صحة السند لا يجوز عنده رفضه حتى ولو لم يصح عقلاً.

وفيما يتعلق بتفسير التاريخ، فإن تناول الإنساني العالمي الذي قام به الطبري يعتبر خطوة رائدة في رحلة التدوين التاريخي الإسلامي، كما أن اهتمام الطبري (بالرسل) كممثلين للحق في التاريخ — في مواجهة الباطل — يعتبر نظرة ممتازة تستحق الرعاية والتركيز.

وقد مثل المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين الهذلي) المتوفى سنة

(2) انظر علي أدهم مقال بمجلة الهلال عدد ديسمبر سنة 1975، وانظر محمد عبد الغني حسن: علم التاريخ، ص 8.

(3) الطبري: تاريخ الأمم والملوك 5/1 ط. دار القاموس الحديث، بيروت.

(345هـ — 957م) مع قربه من عصر الطبري — ومعاصرت له — مرحلة أكثر تطورا في الإلماع إلى بعض مغازي التاريخ.

وقد وصلت إلينا من مؤلفاته بعض الكتب أهمها : مروج الذهب، والتنبيه والإشراف، وكتاب أخبار الزمان ومن أباده الحدثان (بقي منه الجزء الأول وكان في ثلاثين مجلدا) وكتب أخرى ضاعت ولم يبق منها إلا اسمها. ولم يكن المسعودي مؤرخا فحسب، بل كان مؤرخا وجغرافيا معا، فهو رحالة سائح يجمع مادته التاريخية من رحلاته الواسعة، فقد زار الحجاز ومدين وفلسطين والسند والزننج والصين وإيران وجاب الساحل الشرقي للبحر الأحمر — كما يعنى بأثر المناخ والبيئة الجغرافية فيما يناقش من قضايا التاريخ. معتمدا على رحلاته وحده في الاطلاع والجدل والتسجيل المستمر لما يشاهده في رحلاته⁽⁴⁾.

ونستطيع أن ندرك اهتمام المسعودي بتفسير التاريخ فيما ذكره في مقدمة التنبيه والإشراف تعقيبا على بعض كتبه التي لم تصل إلينا، فقد ذكر أنه تناول فيها الأخبار عن بدء العالم والخلق وتفرقهم في الأرض والممالك والبر والبحر والقرون البائدة والأمم الخالية الدائرة الأكبر، وتاريخ الأزمان الماضية والأنبياء وذكر قصصهم وسير الملوك وسياساتهم ومساكن الأمم وتباينها في عبادتها واختلافها في آرائها وبحار العالم والخلجان والأنهار والجزائر الفطام، وما قاله حكماء الأمم في كيفية شبابها وهرمها وعلل جميع ذلك. وما ظهر على الأرض من عجيب البنيان، وما قاله الناس في مقدار عمر العالم ومبدئه وعلته طول الأعمار وآداب الرياسة وضروب أقسام السياسة الدينية، ولأي علة لا بد للملك من دين كما لا بد للدين من ملك ولا قوام لأحدهما إلا بصاحبه، ولم يجب ذلك وما سببه؟ وكيف تدخل الآفات على الملك وتزول الدول وتبيد الشرائع والملل؟ والآفات التي تحدث في نفس الملك والدين والآفات الخارجة المعترضة لذلك وتحصين الدين والملك وكيف يعالج كل واحد منهما بصاحبه إذا اعتل من نفسه⁽⁵⁾.

وهكذا قفز المسعودي — القريب من عصر الطبري — قفزة كبيرة في مجال تفسير التاريخ، فحرك (السكونية) الجامعة التي برزت في تاريخ الطبري، وقدم نمطا

(4) د/ عفت الشرفاوي:- أدب التاريخ عند العرب 264، ود/ شاعر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون 6/2 دار العلم للملايين، بيروت.

(5) التنبيه والإشراف 1 — 3.

موسوعيا متحركا يعتمد على الفكر والرؤية الشمولية والتعليل، وأخرج التاريخ من إطاره السياسي المحدود إلى الدائرة الأرحب التي تتسع لأمر الفلك اتساعها للأبحاث الجغرافية، وتأتي فيها أخبار الكتب وأجناس البشر بجانب أخبار الرجال وحديث التقاليد والأقاصيص والطب، وهو يتحدث في السياسة وعللها وأمر الحرب حديثه في أمور الفكر والجدل الذهني والديني، دون أن ينسى دوما ذكر الأحداث والملوك والأعمار والناس⁽⁶⁾.

وفي عصر الطبري والمسعودي — كذلك — ظهر المؤرخ (المطهر بن طاهر المقدسي) صاحب كتاب (البدء والتاريخ الذي ألفه سنة 355) فقدم لنا إحدى المحاولات المبكرة لتقديم نظرية كلية تهدف لإخضاع التاريخ للتفسير من خلال نظرة مثالية فلسفية⁽⁷⁾ فقد حدثنا في مقدمة كتابه عن المعرفة والعقل، وحدثنا عن الكون وتاريخه بمنظور فلسفي، وأكد في كتابه على الأهمية الثقافية والفكرية للأديان القديمة — كما أنه حاول أن يقدم من خلال كتابه معلومات علمية وفلسفية كلما أمكن ذلك، وقد ظهرت النظرات التفسيرية للتاريخ من خلال الموضوعات أشبه بالآلية المتناثرة، التي لم ينتظمها عقد متماسك، لكنها لم تفقد قيمتها الذاتية كجواهر متناثرة.

وبعيد المقدسي بقليل، ظهر اليعقوبي أحمد بن إسحاق المتوفى سنة (292هـ) مقدما لنا صورة للتاريخ العالمي، مبتدئا بقصة الخليفة، مخصصا جزءا غير قليل من كتابه المنسوب إليه (تاريخ اليعقوبي) لجوانب التاريخ الثقافي. كما قدم صورا من الاكتشافات، والعادات الاجتماعية، وتميز منهجه بالرجوع إلى المصادر الأصلية نفسها، فهو يرجع إلى العهدين: القديم والجديد عند حديثه عن اليهود والنصارى. وكتابه تاريخ موجز منظم يتناول التاريخ العالمي منذ الخلق حتى سنة 259هـ، وقد كان فهمه للتاريخ العالمي يتناول بجانب تاريخ الأنبياء وتاريخ الفرس والجاهلية تواريخ الأمم الأخرى القديمة من آشورية إلى بابلية وهنود ويونان ورومان وفراعنة وبربر وحشب وزنك وترك وصين، فهو من هذه الزاوية تاريخي عالمي حقيقي — وقد اصطبغ بعضه بالأسطورة بسبب ضيق المصادر وغلبة الخرافة فيها — كما

(6) د/ شاکر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون 52/2.

(7) انظر عمر رضا كحالة: التاريخ والجغرافية في العصور الإسلامية، ص 3628، طبع دمشق سنة 1392هـ، وانظر د/ شاکر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون 407/1.

تجلت فيه ميوله العلوية ومحابته للعباسيين، وقد اهتم بالجانب الحضاري أكثر من اهتمامه بالجانب السياسي كما عكس في مادته لونا من ألوان امتزاج الثقافات في ذلك العصر⁽⁸⁾.

على أننا في الحقيقة نستطيع أن نجد في بعض الكتابات غير الموسومة بالطابع التاريخي المباشر، بعض نماذج لتفسير التاريخ، وتقديم إطار الحركة الفكرية والاجتماعية.

ولعل كتابات أبي عثمان بن بحر الجاحظ المتوفى سنة (ت 255هـ) خير نموذج لهذه الكتابات التي يلمس فيها ومضات تفسير التاريخ بمعناه الشامل.

ومن كتب الجاحظ التي حملت بذورا تفسيرية للتاريخ كتاب الحيوان، وكتاب البخلاء وكتاب التاج في أخلاق الملوك، والقطع التي ظهرت من كتابه (تصحيح الأخبار) فضلا عن رسائله التاريخية الكثيرة مثل (رسالة في بيان مذاهب الشيعة) و(رسالة في بني أمية) ورسالة في مناقب الترك، وفي أخلاق الملوك، وفي مدح التجارة ودم عمل السلطان، وغيرها.

ويعتبر الجاحظ من المؤرخين الذين ركزوا على الجوانب الاجتماعية والحضارية، ولهذا فهو أدخل في تفسير التاريخ من كثير من المؤرخين التقليديين.

وقد حاول أبو حنيفة الدنيوري المتوفى سنة (282هـ) في كتابه (الأخبار الطوال) تتبع ملوك الأرض من لدن آدم إلى آخر أيام المعتصم — وهي محاولة رائدة في حقل الفكر التاريخي الإسلامي.

وقد راعى أبو حنيفة في الأخبار الطوال التسلسل الزمني في التاريخ ولكنه انتقى الأخبار وفقا لمفهوم خاص في التاريخ العالمي فوسع في الحوادث والحركات التي اختارها، مما جعل كتابه أقرب إلى أن يكون سلسلة أخبار يلتصق بعضها ببعض للتوازن مع التاريخ الإيراني الذي يحتل المكان الرئيسي. فهو قبل الإسلام يهتم بتاريخ الرسل كثيرا ويقدم صورة متوازنة لتاريخ اليمن والجزيرة وبيزنطة ويتوسع في تاريخ فارس، وبعد الإسلام يمر بفترة الرسالة المرور السريع ليركز اهتمامه على تاريخ العراق وإيران⁽⁹⁾.

(8) د/ شاعر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون 1/250، 402.

(9) د/ شاعر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون 1/249.

ويعتبر كتاب (تجارب الأمم) لأبي علي أحمد بن محمد المعروف بمسكويه (ت 421هـ) واحدا من أهم الكتب ذات الطابع الشمولي الموسوعي التي تمد الطرف إلى تاريخ العالم كله، وقد بدأه صاحبه بما بعد طوفان نوح وانتهى به إلى سنة 370 تقريبا، ومنطلقات مسكويه في تاريخه إنما لخصها العنوان نفسه: تجارب الأمم. ولهذا فإنه لم يكلف نفسه لا المنطلق الموسوعي ولا الفلسفي ولكن المنطلق البراغماتي أو السياسي العملي.

وهكذا جاء الكتاب مشتملا — في رأي مؤلفه — (على كل ما ورد في التاريخ مما أوجبه التجربة وتفريط من فرط وحزم من استعمل الحزم) فكان مسكويه إنما أراد أن يقدم تاريخا عاما منظورا إليه من زاوية التجربة السياسية العملية لا ليكون درسا في الأخلاق — وإن حرص مسكويه عليها — ولا نظرية في الفلسفة ولا مجمعا للأخبار والطرائف والأفكار، ولكن دراسة في تدبير أمور الحكم والدول وقصص الدهاء والغلبة والفضل. إن مسكويه ينطلق إذن من وجهة نظر متشائمة لا تبحث عن الحق ولا الخلق والدين ولا الفكر. ولكن عن تطور الأحداث التاريخية وتحليل أسبابها وهو يورد قبل كل حدث قوله: (وأما أسباب ذلك...) وما التاريخ بالنسبة إليه سوى قصة التجارب والأمثلة على الحزم ومغبة التفريط وأبعاد المكائيد. ومسكويه يمثل في هذا زاوية هامة من الفكر التاريخي السياسي ربما كانت متأثرة التأثر القليل أو الكثير ببعض الأفكار الشيعية الباطنية كالمبادئ الإسماعيلية التعليمية، ولكنها على أي حال تعكس في الوقت نفسه الموقف الريبي الواقعي الذي وصل إليه الفكر السياسي الإسلامي في القرن الرابع (العاشر الميلادي) أمام الاضطراب الدائم والقلق المتواتر للأحوال السياسية⁽¹⁰⁾.

ويعتبر عز الدين بن الأثير أبرز المؤرخين المسلمين بعد الطبري والمسعودي وإن لم يبلغ مبلغ المسعودي في تفسير التاريخ، على ما امتاز به من تنوع في الكتابة التاريخية والحضارية. وقد كتب ابن الأثير في التاريخ العام بالطريقة الحولية، وكتابه (الكامل في التاريخ) موسوعة تاريخية تعدل الطبري وتزيد عليه ما جد من سنين وأحداث حتى عصر ابن الأثير المتوفى سنة (630هـ) وكتابه (أسد الغابة في معرفة الصحابة) إضافة رائدة من فن التراجم وهو لم يقل شيوعا ولا تقديرا عن كتابه الكامل.... وأما كتابه (الباهر في الدولة الأتابكية) فهو تاريخ (موضوعي) يتصل

(10) التاريخ العربي والمؤرخون د/ شاکر مصطفى، ج 1، ص 409.

بدولة محددة، كما أن كتابه (اللباب في تهذيب الأنساب) خاص — أيضا — بقضية محددة وهي قضية (الأنساب) ولم يعد الكتاب أن يكون تكميلا وتهديبا لكتاب الأنساب للسمعاني⁽¹¹⁾.

وفيما يتصل بموضوعنا — تفسير التاريخ — فإن كتاب (الكامل) هو الموسوعة التي يمكن أن نجد فيها وجهة النظر المعبرة عن رؤية ابن الأثير للتاريخ...

ففي هذا الكتاب (الموسوعة ذات المجلدات الإثني عشرة) نجد شمولية في تاريخ المشرق والمغرب لم يسبق ابن الأثير إليها، ومع أنه مشرقى فقد جاء ما كتبه عن المغرب والأندلس مرجعا لمن جاءوا بعده، وقد قدم فيه — مع مشرقيته — مادة غزيرة... ومع أنه (حولي) إلا أنه لم يفضل الاهتمام بالجوانب الموضوعية، فقد كان يفرد بعض الموضوعات بعناوين جانبية، ويصل الأخبار ببعضها — حتى ولو تجاوز منهجه الحولي — حتى لا يقطع موضوعيتها المتكاملة.

وقد حرص ابن الأثير على تعليل بعض الظواهر التاريخية وعلى نقد بعض الأخبار، بل ونقد بعض السلوك من الناس، ووجد لديه النقد السياسي والحزبي والأخلاقي والعلمي، يدرج ذلك عفوا بين ثنايا الأحداث مما جعل شخصيته التاريخية واضحة على الدوام في الكتاب⁽¹²⁾.

ولعل من أهم ما أعطى كتاب الكامل قيمة أن صاحبه تخير له المصادر، وأنه — إلى هذا وذاك — كان يلخص الأخبار أحسن تلخيص ويذكر أصح الروايات التي ارتضاها، ومع ذلك فبعض أقسام الكتاب ومنها القسم الأول المتعلق بالخلقة وبدء العالم لا يخلو من الضعف والأسطورة والمبالغة⁽¹³⁾.

وفي رأي ابن الأثير — كما أورد في صدر موسوعته — أن للتاريخ فائدة محقة إذ يقول: (إن الإنسان لا يخفى أنه يحب البقاء ويؤثر أن يكون في زمرة الأحياء فياليت شعري أي فرق بين ما رآه أمس، أو سمعه وبين ما قرأه في الكتب المتضمنة أخبار الماضيين وحوادث المتقدمين، فإذا طالعه فكأنه عاصرهم، وإذا علمهم فكأنه حاضرهم، ومنها أن الملوك ومن إليهم الأمر والنهي إذا وقعوا على ما فيها من سيرة

(11) د/ شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون 112/2.

(12) د/ شاكر مصطفى: مرجع سابق 112/2.

(13) المكان السابق بتصرف.

أهل الجور والعدوان ونظروا إلى ما أعقبت من سوء الذكر وقبيح الأحداث وخراب البلاد استقبحوها وأعرضوا عنها⁽¹⁴⁾.

ويشير الحافظ أبو الفرج بن الجوزي المتوفى سنة 597 في مقدمة كتابه (المنتظم في تاريخ الملوك والأمم) إلى أن للسيرة والتاريخ فوائد كثيرة أهمها اثنتان : إحداهما أنه إن ذكر سيرة حازم، ووصفت عاقبة حاله أفادت حسن التدبير، واستعمال الحزم، وإن ذكرت سيرة مفرط ووضعت عاقبته أفادت الخوف من التفريط فيتأدب المتسلط، ويعتبر المتذكر، ويتضمن ذلك شحذ صوارم العقول، ويكون روضة للمتنزه في المنقول، والثانية أن يطلع بذلك على عجائب الأمور، وتقلبات الزمان وتصاريف القدر وسماع الأخبار⁽¹⁵⁾.

وفي هذا السياق يشير العماد الأصفهاني في كتابه المعروف⁽¹⁶⁾، (الفتح القسي في الفتح القدسي) إلى فائدة التاريخ فيقول : (ولولا التاريخ لضاعت مساعي أهل السياسات الفاضلة ولم تكن المدائح بينهم وبين المذام هي الفاصلة، وتعذر الاعتبار بمسألة الأيام وعقوبتها وجهل ما وراء صعوبة الأيام من سهولتها وما وراء سهولتها من صعوبتها.

2 - تفسير التاريخ في المغرب الإسلامي :

على أننا إذا ما انتقلنا إلى الجناح الغربي للعالم الإسلامي، وبخاصة في الأندلس والمغرب، فإننا سنجد نمواً مفاجئاً في مسيرة الدراسة التاريخية. فبعد أن كان التاريخ الأندلسي والمغربي عالة على المشاركة، وذلك خلال القرن الثالث الهجري، وهي المرحلة التي مثلها (ابن عبد الحكم) وهو من أعلام القرن الثالث، وصاحب كتاب (فتوح مصر والمغرب والأندلس)، وعبد الملك بن حبيب المتوفى سنة 238هـ، وصاحب كتاب (مبتدأ خلق الدنيا) — فإننا نجد الكتابة عن المغرب والأندلس تعود منذ القرن الرابع الهجري إلى أيدي أبناء المغرب والأندلس، بدءاً من أبي بكر محمد القرطبي المعروف بابن القوطية (ت. في العقود الأولى من القرن الرابع الهجري) وصاحب كتاب (تاريخ افتتاح الأندلس).

(14) الكامل — المقدمة.

(15) نقلا عن روزنتال 412 مرجع سابق مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية.

(16) المكان السابق.

ثم يأتي بعد (ابن القوطية) أول تاريخ ثقافي واجتماعي في تاريخ الكتابة التاريخية المغربية والأندلسية، وهو كتاب (تاريخ قضاة قرطبة) للمؤرخ المعروف محمد بن حارث الحشني المتوفى سنة (360هـ).

ومع بزوغ القرن الخامس الهجري ظهرت في الأندلس حركة تاريخية واسعة، وفي هذه الحركة نضج النظر إلى التاريخ، وتناثرت اجتهادات كثيرة في تفسيره، وكان باعثها هذه المحنة التي أحاطت بالأندلس على يد ملوك الطوائف، مما جعل المؤرخين الأندلسيين يتساءلون: كيف تسقط الأمم؟ وما أسباب سقوطها؟ — ونبع في هذه المدرسة كثيرون على رأسهم شيخ مؤرخي الأندلس أبو مروان بن حيان القرطبي المتوفى سنة 469هـ، وصاحب كتابي المقتبس والمتين، وأسرّة الرازي المعروفة بحملها لرسالة التاريخ (أحمد بن محمد الرازي، عيسى بن أحمد الرازي) والإمام الثبت الفيلسوف المؤرخ أبو محمد علي بن سعيد بن حزم المتوفى سنة 406هـ والذي يعتبر أهم من ظهرت لديه تفسيرات تاريخية واضحة في هذه الحقبة. ويذهب ابن حزم — شأنه شأن سائر المؤرخين المسلمين المتقدمين — إلى أن للتاريخ فائدة أو (غاية) يمكن أن نستخلص جوانبها من وراء الدراسة المتأنية للأحداث والوقائع. ويرى أحد المؤرخين المعاصرين أن هؤلاء المؤرخين الإسلاميين — إنما قصدوا من الوعي بالتاريخ الاستعانة به على تحقيق تواريخ ميلاد الرواة ووفاتهم، فيعين هذا إلى الثبوت من صحة رواية الحديث أو عدم صحته، وتفسير القرآن الكريم، والعبرة والموعظة، أي إن للتاريخ فائدتين عندهم: دينية وتعليمية⁽¹⁷⁾.

لكننا نعتقد أن ابن حزم لم يقف بفائدة الوعي بالتاريخ عند هاتين الغائتين اللتين عرفنا لدى المؤرخين المسلمين في هذا العصر.

فمن بين ما رآه ابن حزم من فوائد الوعي بالتاريخ: الاطلاع على فناء الممالك وخراب البلاد المعمورة، ودثور المدائن المشهورة التي طالما حصنت وأحكمت، وذهاب من كان فيها وانقطاعهم، وتقلب الدنيا بأهلها وذهاب الملوك الذين قتلوا النفوس، وظلموا الناس، واستكثروا من الأموال والجيوش والعدد ليستديموها لهم ولأعقابهم فما دامت لهم، بل ذهبوا وانقطعت آثارهم، ورحل بنوهم وضاعوا،

(17) عبد الحليم عويس: ابن حزم الأندلسي مؤرخا، ص 3، طبع دار الاعتصام، القاهرة.

وبقي ما تحملوا من الآثام والذم والذكر القبيح لازما لأرواحهم في الميعاد ولذكرهم في الدنيا — فيحدث لهم بذلك زهد وقلة رغبة، وليشرف على اعتزاز الملوك بها وليقف على صد المتقين الأخيار للفضائل فيرغب فيها، ويسمع ذمهم للردائل فيكرهها (...). ويطلع على آثار المفسدين في الأرض وسوء الآثار عليهم، وما أبقوا من الأسماء الذميمة فيمقت طريقهم، ويتجنب أن يكون مذكورا فيهم. ويجعل هذا العلم خاصة وقت راحته وسأتمته فإن هذا العلم سهل جدا ومنشط ومنتزه ولذة⁽¹⁸⁾.

ولقد أدرك ابن حزم أن هناك فرقا بين فعل الله في الكون، وبين فعل الإنسان الذي هو العنصر المؤثر في رقي الحضارة، أو في اندحارها.

ومن خلال هذا الإدراك درس ابن حزم العوامل التي تجعل حركة الإنسان في التاريخ حركة إيجابية، ورفض الخلط بين ما يمكن لنا تسميته (الحتمية الكونية) وبين (الحركة الإنسانية) فبينما تكون الأولى إجبارية اضطرارية تكون الثانية (طبيعية ممكنة في التصرف)⁽¹⁹⁾.

ويوضح ابن حزم رأيه حين يرد على الذين يلوكون كلمتي القضاء والقدر على أنهما بمعنى الإكراه والإجبار، وليس الأمر كما ظنوا وإنما معناهما الحكم فقط، فالقاضي بمعنى الحاكم، ويكون معناهما أيضا (أمر)، وبمعنى (أخبر) وبمعنى رتب ونظم، أي أنه ليس من معانيهما الإكراه والإجبار⁽²⁰⁾.

وهذا الإطلاق لحرية الحركة الإنسانية يقيده ابن حزم (بالتركيب الأخلاقي) الذي يحد منها، فهو يقول: (ومن عرف تراكيب الأخلاق المحمودة والمذمومة علم أنه لا يستطيع أحد غير ما يفعل مما خلقه الله عز وجل فيه، فنجد الحافظ لا يقدر على تأخر الحفظ، والبليد لا يقدر على الحفظ، والفهم لا يقدر على الغاوة، والغبي لا يستطيع ذكاء الفهم، والحسود لا يقدر على ترك الحسد، ونزبه النفس لا يقدر على الحسد، كذلك يوجدون من طفولتهم، وسيء الخلق لا يقدر على الحلم. وهكذا في كل شيء فصح أنه لا يقدر أحد إلا على ما يفعل مما يتم الله

(18) من رسائل ابن حزم / نقلا عن عبد الحليم عويس : ابن حزم الأندلسي مؤرخا، ص 131.

(19) انظر الفصل 3 — 15.

(20) انظر الفصل 3 — 51، 52.

تعالى فيهم القوة على فعله(21).

والحق أننا نستطيع أن نقول مطمئنين : إن ابن حزم يندرج تحت قائمة المفكرين الإسلاميين الذين يرون أن أحداث التاريخ تصنعها في البداية وفي إطار الحركة الكونية — إرادة الله ومشئته — .

ودور الإنسان في هذه الحركة عند ابن حزم دور محكوم بهذه الحركة الكونية، وبمجموعة الطبائع الفطرية التي خلقه الله عليها ويدلنا فكر ابن حزم على أن هناك عناصر ثلاثة ركز عليها ابن حزم، وقدمها كعوامل تسهم بدرجة كبيرة في إبداع الحضارة، وهي كلها عوامل تؤكد أن الجانب الروحي والفكري — وهو ما ركز عليه أكثر المفكرين الإسلاميين — هو أهم تفسير للتاريخ(22)، وأن العوامل المادية والبيئية — مع ضرورتها — تحتل مرتبة تالية في صنع الحضارة وفي استمرار تماسكها.

وهذه العناصر التي ركز ابن حزم عليها هي :

1) العقيدة والشريعة :

«فلا بد لكل أمة من معتقد ما، إما إثبات وإما إبطال» كما يقول ابن حزم(23)، وأهمية العقيدة تأتي عنده من أنها تشبه الروح التي توجه الإنسان إلى البناء، وتنقي باطنه من الأمراض الاجتماعية والخلقية، بل إن العقيدة نتيجة إصلاحها للنفس وتقويمها لها وتوجيهها في طريق مرسوم — هي التي تدفع إلى الاهتمام بالتحصين الظاهري الذي يحمي الأمة كبناء الأسوار والحصون واتخاذ السلاح وما إلى ذلك من ضرورات إقامة الأمم وتحقيق أمنها ورخائها.

ويعتمد ابن حزم في تأكيد رأيه على بديهية عقلية حين يصور لنا الحياة بدون عقيدة وشريعة، وقد شملها القتل والزنا والظلم وأمراض البغي والحسد والجبن والفسق والخيانة. وهو يتساءل بعد سرده لهذه الآفات المدمرة للحضارة : هل

(21) الفصل 3 — 42.

(22) انظر الدكتور أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ج 1، ص 22، الطبعة السادسة.

(23) رسائل ابن حزم (مراتب العلوم) 78.

صلاح العالم إذن إلا بالشرائع الزاجرة؟! ولولا الشرائع أما كان العالم سيفسد كله وستفسد فيه العلوم كلها؟

بل إن ابن حزم يرى أن فضيلة الفهم والنطق والعمل ستبطل في الإنسان ويصير — بدون العقيدة والشرائع الزاجرة باطنا وظاهرا — كالبهائم سواء بسواء. والحق أن رؤية ابن حزم لدور العقيدة، سواء كانت العقيدة صحيحة أو باطلة في بعض أركانها، رؤية جديدة انتهى إليها كثير من المفكرين الذين أصبحوا يسمون عصرنا هذا بعصر (الأيديولوجيات) بل إن ثمة إجماعا من المفكرين على أهمية دور الفكر والتشريع في الصراع الحضاري بين الأمم، وإن أمة تملك عقيدة وفكرا — مهما كان خطأ بعض تصوراتها — لهي أقوى على الصمود والإبداع من الأمة التي تعيش بلا عقيدة أو شريعة مهما كانت الأسباب المادية متوافرة لدى هذه الأمة.

(2) التعليم والتربية :

يرى ابن حزم أن للتربية والتعليم دورا مهما في بناء المجتمع ورفق الأمة، ونحن نلمح التفرقة في فكر ابن حزم بين مصطلحي التربية والتعليم، وهو أمر انتهى إليه المرءون، وأصبحوا يفرقون به بين ما ينمي ملكات العقل ويكون المشاعر والاتجاهات الصحيحة، وبين ما يمكن أن يحتشد به العقل — مجرد حشد من المعلومات، كما أن ابن حزم كان موقفا في الجمع بين العلوم النظرية والتطبيقية دون تفرقة.

(3) الأخلاق :

ومن خلال فكر ابن حزم يتجلى تركيزه على الأخلاق ودورها في بناء الأمة ورفقها، ويذهب ابن حزم إلى أن جوهر الأخلاق هو (الصدق) فهي عنده أصل تدور حوله كثير من الأخلاق الأخرى، وابن حزم يستلهم في ذلك النظرة الإسلامية التي تهتم بالصدق مع النفس ومع الله ومع الآخرين أيما اهتمام، وذلك لأن الصدق أساس لإقامة الحياة الاجتماعية، وأن الأمم التي تفقد هذه الصفة تقضي على بنائها الاجتماعي ومعاملاتها الاقتصادية بالسقوط — كما أن الهيكل الاجتماعي الذي مادة بنائه الصدق يستطيع أن يقف في وجه أعنف ضربات الزمان⁽²⁴⁾.
ويتركب الصدق عند ابن حزم من فضيلتي العدل والنجدة، وأما الكذب

(24) انظر عبد الحميد صديقي : تفسير التاريخ 151.

فيضم كثيرا من الأمراض المهلكة. وما ظنك بعيب يكون الكفر نوعا من أنواعه؟ فكل كفر كذب، فالكذب جنس الكفر، والكفر نوع تحته. والكذب متولد من الجور، والجبن والجهل، لأن الجبن يولد مهانة النفس والكذاب مهين النفس بعيد عن عزتها المحمودة⁽²⁵⁾ ويورد ابن حزم حديث الرسول عليه الصلاة والسلام الذي يقول فيه :

إن المؤمن يكون بخيلا وجبانا لكنه لا يكون كذابا، والحديث الذي يقول فيه إن العبد يظل يكذب حتى يسود قلبه، والأحاديث الأخرى المتضاربة على بيان أن الكذب أساس لكثير من الأمراض الخلقية⁽²⁶⁾ التي تفسد المجتمع.

ومن الناحية الحضارية، يقول ابن حزم عن أثر الكذب : «وما هلكت الدول ولا هلكت الممالك، ولا سفكت الدماء ظلما ولا هتكت الأستار بغير الثائم والكذب»⁽²⁷⁾.

ثم يورد ابن حزم نماذج متعددة، ونصوصا تتضافر كلها على تأكيد دور الكذب في إفساد الحياة⁽²⁸⁾.

والحق أننا نستطيع أن نجد في الفكر التاريخي لابن حزم إشارات دالة على عديد من مقومات الحضارة، كما أننا نستطيع أن نستنتج أن افتقاد هذه المقومات من شأنه أن يجعل البناء الحضاري للأمة آيلا للتداعي وليس تماسكه إلا عملية وقتية. وقد تحدث ابن حزم بإسهاب عن الأندلس في عصري الفتنة والطوائف، وقدم لنا من خلال هذا العرض نموذجا لتفسير التاريخ بتعرضه لمجتمع افتقد مقومات البقاء، وتفشت فيه أمراض الحضارة.

لكننا نعتقد أن كثيرا من هذه الإشارات الحضارية لا تعدو أن تكون لفتات جزئية مجملة، وأنها لم تكن في بروز ووضوح العوامل الثلاثة التي ذكرناها (العقيدة، الأخلاق، التربية) بحيث تستحق الذكر فضلا عن أنها إشارات وجدت عند أكثر المؤرخين والمفكرين الإسلاميين.

(25) رسائل ابن حزم (رسالة مداواة النفوس) 146 — 147.

(26) انظر الطوق 86.

(27) المكان السابق.

(28) انظر الطوق 87 — 88 وغيرهما.

وبإيجاز لقد كان ابن حزم من المفكرين المسلمين الأول الذين اتجهوا إلى الحديث عن بعض قضايا الفكر التاريخي من ناحية (البناء النظري) وكانت جهود هؤلاء المؤرخين هي التمهيد القوي الذي نجح من خلاله الفيلسوف العلامة (عبد الرحمن بن خلدون) في تقديم بناء نظري فلسفي متكامل للفكر التاريخي. وقد ظهر بعد ابن حزم مؤرخون كثيرون — في الأندلس — كانت لهم نظراتهم المتناثرة في قضايا التفسير التاريخي، والتاريخ الحضاري، وكان منهم صديقه ابن عبد البر الذي يعتبر صديقا له أكثر منه تلميذا، وهو مؤلف كتاب الدرر في اختصار المغازي والسير. ومنهم الحميدي صاحب جدوة المقتبس وهي أقرب مدرسة إليه، وصاعد صاحب طبقات الأمم، والطرطوشي صاحب سراج الملوك وغيرهم.

وفي التراجم ظهرت مجموعات كاملة في الطبقات والأعلام، وهي تاريخ اجتماعي وثقافي أكثر منها تاريخ سياسي، وللأسف فإن كثيرين يجهلون قيمة هذا النوع من التأليف، وقد عابه الدكتور زكي نجيب محمود، صاحب (تجديد الفكر العربي، والمعقول واللامعقول في تراثنا)، بينما هو لا يدري كم حفظت كتب الرجال والطبقات لحضارتنا من تراث ثقافي وقيم حضارية — ويعتبر ابن بشكوال صاحب الصلة، وابن الأبار صاحب الحلة السمراء، والتكملة، فضلا عن الضبي صاحب بقية الملتمس، من أبرز رجال الطبقات والأعلام. في الأندلس. وقد حفظت لنا موسوعات الذخيرة لابن بسام الشفتريني المتوفى سنة 542هـ، والمقري المتوفى سنة 1041هـ، وصاحب نفع الطيب، والإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب — كثيرا من التراجم التي أعطت تاريخها الحضاري أبعادا ثقافية طيبة.

ج — مرحلة التنظير المنهجي :

لقد قدم محيي الدين محمد بن سليمان الكافيجي (788 — 879هـ) أقدم رسالة معروفة في نظرية علم التاريخ، وذلك في كتابه (المختصر في علم التاريخ) الذي كتبه سنة 867هـ (1463م) ولئن كان ابن خلدون قد سبقه فإن ابن خلدون كان يبحث في التاريخ، أما الكافيجي فيبحث في عملية كتابة التاريخ بصورة مباشرة⁽²⁹⁾، لقد حاول الكافيجي أن يقدم معالجة لنظرية التاريخ نفسها وكتابه (المختصر) أصيل في طريقته وجودة كتابته وعلميته ومنهجيته.

(29) روزنتال : علم التاريخ عند المسلمين 318 طبع مؤسسة الرسالة.

وقد أجب الكافي في الكتاب عن المسائل المتعلقة بخصائص علم التاريخ وغرضه وهدفه وفوائده، غير أنه كرس مجالاً أوسع للمعضلات الناجمة عن غموض كلمة تاريخ (العربية) وعن مركز التأريخ في العلوم الدينية الإسلامية⁽³⁰⁾.

— لقد ظن بعض المؤرخين، ومنهم روزنتال⁽³¹⁾ أن (المختصر) لم يشير إلى شيء من الإبداع الفلسفي في علم التاريخ وأن الكافي كان غامضاً، وأنه عالج التاريخ من منطلق الوقت والضبط التقليديين، بيد أن القراءة الواعية للمختصر تفيدنا أن ثمة وعياً توافر لدى الكافي بتفسير التاريخ. يقول الكافي عن موضوع علم التاريخ :

(وأما موضوعه فهو أمور حادثة غريبة لا تخلو من مصالح وترغيب وتحذير وتنشيط وتثبيط ونصح واعتبار وبسط وانفعال بحيث يلاحظ فيها ضبطها بتحرير تحديد وتقرير تعيين وتوقيت لغرض صحيح في ذلك كوقائع متعلقة بالأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام. قال الله تعالى : «لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون»⁽³²⁾، كما قال : «نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن»⁽³³⁾ وكسائر حوادث من الأمور السماوية والأرضية من حدوث ملة وظهور دولة وزلزلة وطوفان وموتان إلى غير ذلك من الحوادث الصائلة العظام والأمور الهائلة الجسام⁽³⁴⁾).

ويقول الكافي⁽³⁵⁾ في معرض رده على من يقولون بعشية التاريخ أي أنه لا فائدة منه :

إن (فيه فوائد لا تحصى منها إحاطة تلك الحوادث الجزئية على وجه معتبر بهذا العلم الشريف، ولولاه لكان الخائض فيها يتكلم فيها كيف ما اتفق بلا تمييز بين

(30) روزنتال مرجع سابق 319.

(31) انظر مرجع سابق، ص 320، 321 (روزنتال).

(32) سورة يوسف : الآية 111.

(33) سورة يوسف : الآية 3.

(34) روزنتال : علم التاريخ عند المسلمين، ص 333 (من نص كتاب للكافي) بتحقيق روزنتال.

(35) ص 335 من الكتاب السابق (نص الكافي للمتظم).

صحيح وفساد، وتخبط فيها خبط عشواء فيكون كحاطب ليل فيكون هذا العلم قانونا له، وميزانا وعتارا ومكيالا له.

فإذا اتزنت بهذا الميزان تكون صحيحة العيار معتبرة لدى أولي الأبصار والأفكار).

— وفي كلام الكافيجي إشارة إلى الوظيفة الأساسية لعلم التاريخ، وهي رصد الأمور الحادثة الغربية التي لا تخلو من منفعة ونصح واعتبار. أما الحوادث العادية الرتيبة التي لا تحمل شيئا إضافيا أو الأشخاص الذين لا يقفون فوق خشبة مسرح الأحداث، بل يمثلون المادة الخام المكرورة المتشابهة. فهؤلاء — حوادث وأشخاصا — لا يلتفت إليهم التاريخ — إلا بطريقة إجمالية —، ضمن رصده العام للشرائح الصانعة لنشاطات الحياة المختلفة.

— أما شمس الدين السخاوي المتوفى سنة 902هـ وصاحب (التوبيخ لمن ذم أهل التاريخ) فيعرف التاريخ بقوله: (إن التاريخ فن يبحث فيه عن وقائع الزمان وحيثية التعيين والتوقيت، بل عما كان في العالم، وأما موضوعه فالإنسان والزمان. ومسائله: أحوالهما المفصلة للجزئيات تحت دائرة الأحوال العارضة الموجودة للإنسان وفي الزمان⁽³⁶⁾).

ويقول أيضا: (إن التاريخ جم الفوائد كثير النفع لذوي المهتم العالية والقرائح الضافية، لما جبل عليه طباعهم من الارتياح عند سماعهم هذه الأخبار إلى التشبه والافتداء بأربابها ليصير لهم نصيب من حسن الثناء، وطيب الذكر الذي حرص عليه خلاصة البشر... بحيث يكون من عرفه — أي التاريخ — كمن عاش الدهر كله وجرب الأمور بأسرها وباشر تلك الأحوال بنفسه فيغزر عقله ويصير مجربا غير غر⁽³⁷⁾).

ويعتبر كتاب السخاوي تفصيلا وافيا لكتاب كافيجي الذي كان موجزا كل الإيجاز، كما أنه يعتبر — أيضا — عرضا جميلا لعلم التاريخ الإسلامي وآماله ومعضلاته لمن يعرف كيف يقرأه⁽³⁸⁾.

(36) الإعلان بالتوبيخ 385، 400، 401 بتصرف (بتحقيق روزنتال).

(37) المرجع السابق.

(38) روزنتال مرجع سابق 372.

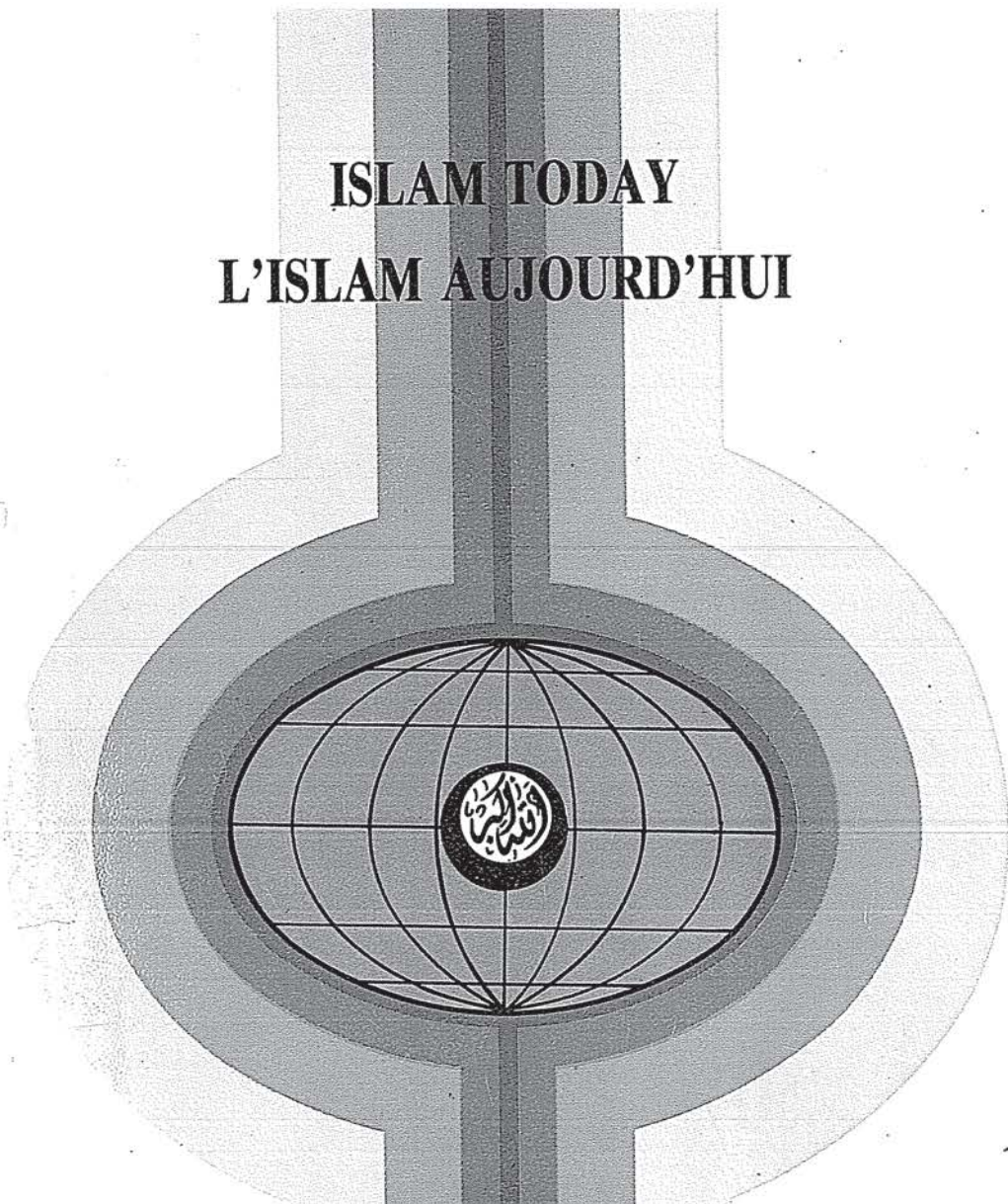
وقد أظهر لنا السخاوي فهمه الشمولي للتاريخ، فهو يؤمن بالرصد الحضاري الشامل لكل العوامل الفاعلة في الحركة التاريخية، ولا يقتصر على التاريخ السياسي أو العسكري، وقد ذكر لنا — وهو يؤيد هذا الفهم الحضاري — هذه الفنون الأربعين للكتابة التاريخية التي سجلها الذهبي في مصنفه، ومنها سيرة النبي عليه السلام، وقصص الأنبياء تاريخ الملوك والوزراء والكتاب والموقعين والأدباء والشعراء والفقهاء والقراء والحفاظ والمؤرخين والنحاة والأدباء واللغويين والزهاد والمعلمين والعقلاء والأطباء والمتكلمين والغلاة من الروافض وأهل السنة والبيخلاء والطفيلية والزمني والصم والمنجمين والشجعان والشطار والبحار وأولي الصنائع العجيبة والرهبان والصانعين (المصنعين المنافقين) والملاح والعشاق وأهل الخلاعة وعقلاء المجانين والشحاذين وغيرهم. بحيث إننا لا نعتقد أنه أغفل طائفة من طوائف المجتمع الفاعلة فيه والمتفاعلة معه سلباً أو إيجاباً⁽³⁹⁾.

وهكذا مثل الكافيجي والسخاوي مرحلة التنظير للكتابة التاريخية على نحو منهجي من شأنه أن يدعم القاعدة التي أرساها العلامة عبد الرحمن بن خلدون. لقد أصبح التاريخ على يد الكافيجي والسخاوي (علما) كما أنه كان قد أصبح على يد ابن خلدون (قوانين) تستخلص منها فلسفة للتاريخ.

(39) انظر الإعلان 521 / 522 بتحقيق روزنتال.

ISLAM TODAY

L'ISLAM AUJOURD'HUI



*Iraq - Iran war : for
how long still ?*

*Regulating procreation
through ethics*

The Charter of ISESCC

• *La méthodologie islamique.
Un regard sur le Fiqh*

• *Indonésie – Jordanie*

• *Courrier...*

N° 5 - Dhoul-I-Qi'ida 1407 H / July - Juillet 1987

TOWARDS A NEW APPROACH IN WRITING HISTORY

INTERPRETATION OF HISTORY IN OUR ISLAMIC HERITAGE

Abdelhalim Ouayès (*)

A - The Era of Undisputed Foundations

The bases of the fledgling Islamic civilization were firmly established after the revelation of the Qur'an (which constitutes the cultural and legal framework for Muslims) and after the recording of the words and deeds of the Prophet (the Sunna) which provided guidance in individual, social and human aspects of life.

Accordingly, human civilization witnessed the emergence of a well defined trend which enabled Muslims to confer a new orientation on history and to select distinct assets from their past heritage, keeping what is good and discarding what is not, thus giving birth to an authentic Islamic civilization.

As a result, Muslims began to take a keen interest in history. It was only natural then that they should concern themselves with their proper experience in connection with the Prophet's biography. This was not a mere historical period or an era of military campaigns ; this was a blessing through which they changed the course of history, and whereby they displayed their wonderful interaction with civilization. Indeed, the Prophet (peace and blessings be upon him) did not shape his life in seclusion ; rather, he lived it with his followers and through them ; they were the raw material he shaped, the substance he moulded and the source of energy he discovered. Through them, he converted what was negative into positive achievements, he turned wickedness and evil into goodness and virtue and made, likewise, of egoistic and tribal prospects, greater, loftier and universal prospects.

It was only natural that Muslims should have competed in writing the

(*) Associate Professor at the Social Sciences College, Imam Ibn Saud Islamic University, Ryad, Kingdom of Saudi Arabia.

biography of the Prophet and in recording faithfully his deeds, sayings and decisions. The conquests cannot therefore be dissociated from the life of the Messenger, for they represent the power whereby evil was confronted and the remedy to the base, animal-like and immoral drives of the human nature. Therefore, any call which discards the use of force is a passive, utopic and mythical call because it ignores the human nature as well as evil forces on earth. Yet, force should be resorted to only to cure evil and only when a noble solution is impossible ; and the noble solution consists in calling for wisdom, love and mercy among human beings. Both the life of the Prophet and the military campaigns were based on this fundamental principle.

Muslims recorded the Prophet's biography and military campaigns with accuracy and meticulousness, and appended to these recordings chronicles on the pre-Islamic era («Jahilia»), its main events, characteristics, literature, in addition to different cultural aspects. They also recorded news of Arabs before the advent of Islam, the history of earlier Prophets and that of Persians, Romans and other nations as well.

Oral tradition, observation, holy books, and reports of chroniclers and those interested in religions were the sources wherefrom they derived their information. However, they needed no information to write the Prophet's biography or his military campaigns because they lived and experienced them themselves before recording them. They were themselves their own source material and experienced this distinct heritage as a form of worship before they were to pass it on as historical facts.

Confirmation or invalidation of the chain of authorities and narrators was the methodology adopted by Muslims in recording the Prophet's biography and his military campaigns ; both were viewed as history and acts of worship at the same time.

Among the eminent figures in this field were «Urwa Ibn Zoubair Ibn Al Awwam (b. 23 H), Abban Ibn Othman Ibn Affan (b. 20 H), Mohammed Ibn Muslim Ibn Shihab Az-Zuhir, Walid Ibn Muslim Abu Al-Abbass Al Amawi (d. 195 H), Said Ibn Saad Ibn Ibada Al Khazraji (d. 123 H), Sahl Ibn Abi Khaitama Al Madani Al Ansari (b. 3 H), Sharhabil Ibn Saad (b. 24 H) and Wahb Ibn Hanaba (d. 114 H).

As for reports on the era of the conquests and the historical change, they were the work of Asim Ibn 'Amr Ibn Qatada (d. 119 H), Abu Rawh Yazid Ibn Ruman Al Asadi (d. 130 H), Muhamad Ibn Abd-Arrahman Ibn Nawfal Al Asadi (d. 131 H), Muhammad Ibn Muslim Ibn Shihab Az-Zuhari (d. 134 H), Muhammad Ibn As-Said Al Kalabi (d. 146 H), Mussad Az-Zubairi (d. 233 H) and many others (1).

Succeeding them was the generation of historians who laid down the

(1) See Dr. Mustapha Shakir 'Arab History and Historians' pp. 1-113. Dr. Said Ismail Taif.

foundations of the science of history and ensured its independence. Among these were Ibn Bahar Ad-Dabi (d. 222 H), Al Jumhi Abu Abd-Allah Muhammad Ibn Salam Al Basri (d. 231 H), Yahya Ibn Mu'īn Al Baghdadi (d. 233 H) and Al Khazzaz Ahmed Ibn Al Harith (d. 258 H). Yet the noblest task in the history of Islam consisted in transmitting the deeds and sayings of the Prophet with accuracy and precision. The narrators who discharged this duty devoted their time and efforts to this task and had to differentiate between the Hadiths which were authentic («Sahih») and those which were not.

Amongst the transmitters of the Hadith was Muhammad Abu Ismail Al Bukhari (d. 256 H), whose «Sahih» is second only to the Qur'an in terms of the history of Muslims and is the first of the six major reference books adopted by Muslims. In addition to the «Sahih», Al Bukhari wrote «Attarikh Al-Awsat», «Attarikh As-Saghir», «Attawarikh wal Ansab», as well as «Attarikh Al Kabir», which includes the biographies of about 40.000 narrators, men and women. Then comes Imam Muslim (d. 261 H), then Imam Attarmidi Mohammad Ibn Aissa Assalmi (d. 279 H) followed by Abu Daoud (d. 375 H), An-Nissaai (d. 303 H) and Ibn Majja (d. 275 H).

These Imams recorded the Prophet's biography as part of a general historical context. Their work was meticulously documented even more so than some books which are considered by their authors to be beyond doubt or questioning. Whenever they disagreed over a term, they mentioned the different versions in which this term had reached them, without altering the context or using words of their own. They did not even dare interpret the meaning. However, there were some disciples who wrote «sacred» books using their own words and relying only on the information they had memorized. These disciples did not mention nor check the chain of authorities nor the words used so as to preserve the sayings from additions and personal wording. Needless to say, then, that the contents of those books were not always authentic.

We consider this period to be essential in Islamic historiography. The presentation of history on the basis of authentic materials is unlike the one using information wherein truth is mixed with personal inclinations and interpretations.

Here indeed lies the historical value of the Hadith methodology which predominated in Islamic historiography at its early development stages. By adopting this distinct methodology, Muslims based their conception of history on firm foundations and well-documented facts.

B - The Era of Comprehensive Recording and the First Historiography Seeds.

1. History Writing in the Mashrek

Following the period of documentation and authentication of Islamic foundations, the scope of historical research became greater with the establishment of history schools in Medina, Egypt, Iraq and Syria.

We shall not delve into historical interpretations. Rather we shall simply trace back the steps of the early historiographers in the Mashrek and Maghreb, up to the period of eminence and clarity which was marked by the theorizing approach formulated by Abderrahman Ibn Khaldoun in his well-known «**Muqqaddima**». This period is also characterized by the work of Mohieddin Al Kafiji (d. 879 H) who expounded his comprehension recording methodology in «**Al Mukhtasar fi 'ilm Attarikh**», and by Shams-Uddine As-Sakhaoui (902 H), author of «**At-tawbikh liman dhamma ahl attarikh**».

Ibn Jarir Attabari (d. 310 H) is considered to be the pioneer of the comprehensive recording approach in the Mashrek. His outstanding book «**Tarikh Ar-Rusul wal Muluk**» (10 volumes) is indeed viewed as a major reference source in this respect. Nonetheless, the author reports the events in a traditional narrative way, ignoring, for the most part, their historical implications.

For Attabari, history is a recording of past events which might have happened or not, but which can be arrived at only through narration, and not logic or reasoning. He also views history as a compilation of events in their different versions, and believes that the historian should not concern himself with contradictions and refrain from expressing his viewpoints lest he should influence the reader (1).

He says in the preface «Let the reader know that I have based my reports on gathered information and reported events without resorting to reasoning or personal interpretation. Should he be outraged by what has been written on some predecessors, he must keep in mind that I have confined my role to transmitting facts as they have been reported to me» (2).

In the above mentioned book, Attabari relates the history of mankind : the dismissal of Adam from paradise, Abel and Caen story, the life of the Prophets from Noah, Abraham and Lot, in addition to the history of the Romans and the Persians. He also related the Prophet's biography, starting with the birth of the Prophet up until the fourth Hegira Century. Attabari's work has the merit of being reliable as far as Islamic history is concerned because he adopted the approach based on the chain of authorities and thus provided a considerable amount of accurate information on Persians and Romans in an impartial and objective manner.

Attabari focussed on the political aspects of history, but he refused to resort to the ascription method, or the internal criticism of information based on reasoning, logic and a distinct scientific methodology. He insisted on the chain

(1) See Ali Adham's article in «Al Hilal» Decembre 1975 and Mohammad Abdulghani Hassan : «Ilm Attarikh» p. 8

(2) Attabari - **Tarikh Al Umam Wal Muluk** 1-5
Dar Al Qamuss Al Hadith. Beyrouth.

of authorities, arguing that once the chain was proven valid, the events thus reported may not be refuted even when they are not consonant with logic.

With respect to historiography, Attabari played a leading role in Islamic history writing by adopting the universal humanistic approach. Likewise, his presentation of Messengers, in history, as custodians of truth against falsehood, deserves our keen interest.

Though he was a contemporary of Attabari, Al Mas'oudi (Abu Al Hassan Ali bin Al Hussein Al-Hadeli) (d. 345 H - 957) represented an era in which historians excelled in expounding the implications of historical events. Among his works which are known to us are «**Muruj Ad-dhahab**», «**Attanbih Wal 'ichraf**», and the first part only of «**Akhbar Az-Zaman waman Abadahu al-Hadathan**» (30 volumes) ; his other works were lost. Al Mas'oudi was not only a historian ; he also took an interest in geography. He used to travel extensively in order to gather material for his works. Thus, he visited Hijaz, Palestine, Sind, Black Africa, China, Persia and the Eastern coast of the Red Sea. He also studied the role of climatic and environmental factors in their relation with historical events (3).

Excerpts from the preface to «**Attanbih Wal Ichraf**», wherein he comments on some of his books which did not reach us, attest to the interest Al Mas'oudi took in historiography. We thus learn that he addressed the creation of the universe and man, the scattering of people on earth, the history of past centuries, nations, prophets, kings and their policies, customs and habits... etc. He also reported the sayings of wise men on the reasons for the prosperity and decadence of civilizations. Similarly, he wrote on the development of town planning, on the age of the world, longevity, the relationship between power and religion and the necessary interaction between worldly matters and spiritual considerations. This led him to talk about the decline of empires and the ways to consolidate both power and religion in a mutual way (4).

Thus, Al Mas'oudi achieved a major stride in the art of history writing. He introduced some dynamism into the static approach of Attabari and initiated a comprehensive encyclopedia-like pattern based on thought, argumentation and wide vision. He thus managed to take history out of the confines of politics and made it cover other realms such as those of astronomy and geography. As a result, his works addressed a wide variety of subjects, including books, races, stories about man, traditions, tales and even medicine. He talked about politics and war along with intellectual issues and religious arguments, in addition to major events, kings, people in general, ages... etc. (5). Al Mutahar

(3) Dr. Iffat Ash-Sharkawi. *Adab Attarikh inda Al Arab* p. 264.

(4) Dr. Shakir Mustapha : *Al-Tarikh Al Arabi Wal Mu'arrikhun* p. 2-6

(5) Omar Ridha Kahhala. *History and Geography in Islamic era*. p. 3628, 1392 H.
Dr. Shakir Ibid. 1-407.

Abu Tahir Al Maqdisi was a contemporary of Attabari and Al Mas'oudi. He made an early attempt at a comprehensive theory which aims to explain history from an idealistic philosophical viewpoint.

In the introduction to his «**Al bad' wa tarikh**», which he wrote in 355 H, he tried to expound the concepts of cognition and the intellect, and talked about the universe and its history from a philosophical viewpoint. He also underlined the intellectual and cultural importance of ancient religions, and provided substantial data of a philosophical and scientific nature. These views in the interpretation of history were similar to pearls as it were; and though they were scattered ones, they did not lose any of their intrinsic value.

Shortly after Al Maqadisi's death, Al Yaaqoubi Ahmad Ibn Ishaq (d. 292 H) came to present us with accounts on universal history. In his book «**Tarikh Al Yaaqoubi**», he started with the creation of the universe and devoted a large part of his book to the cultural aspects of history. He also talked about discoveries and social habits. He relied in his approach on original sources, hence his reference to the Old and New Testaments in connection with the history of Jews and Christians. **Tarikh Al Yaaqoubi** can thus be viewed as a synthesis of universal history from the creation of the universe to the year 259 H. Besides the history of the Prophets, it covers that of Persians, Romans, the pre-Islamic period («Al Jahiliya»), as well as the history of ancient nations such as the Assyrians, Babylonians, Hindus, Greeks, Romans, Pharaohs, Berbers, Abyssinians, the Turks and the Chinese. He was thus a truly universal historian. His accounts were tinged with legend because of the lack of reference sources and the predominance of superstitious thinking. His sympathy for the

Alawites and his indulgence towards the Abbassides were evident. Al Yaaqoubi was more concerned with cultural aspects than political ones; hence the cultural blend which characterizes his writings.

We can also find in books which are not directly concerned with history some patterns of historiography as well as actual attempts at defining the intellectual and social developments. The works of Abu Othman Ibn Bahr Al Jahidh (d. 255) stand as a case in point in terms of the writings which seek to provide a comprehensive explanation of history.

Among such books were Al Jahidh's **Al Hayawane**», «**Al Bukhala**», «**Attaj Fi Akhlak Al Muluk**», in addition to his many a historical treatise such as «**Risala Fi Bayan Madahib Ashiaa**», «**Risala Fi Bahri Umayya**» and other studies on Turks, the morals of kings, the virtues of commerce... etc.

Al Jahidh is among the historians who emphasized the social and cultural aspects. He is held to be among the best in terms of explanation of history; a merit which classical historians enjoyed only rarely.

In the field of Islamic historical thought, Abu Hanifa Ad-Daniouri (d. 282 H) took the leading initiative of seeking, in his «**Al Akhbar Attiwal**», to survey the history of kings from Adam to the end of Al Mu'tassim's rule. He based

his approach on the chronological sequence of events. However, he selected his information according to his own perception of universal history, dwelling on specific events and movements. His book came as news on a series of interrelated events which reflected primarily the development of Iranian history. As for the pre-Islamic period, he focussed on the Messengers' stories, and presented a balanced account on the history of Yemen, the Arabian Peninsula and Byzantium, in addition to long reports on the history of Persia. As for the period following the advent of Islam, he limited himself to a quick survey of the time of the Revelation and focussed essentially on the history of Iraq and Iran (6).

«**Tajarib Al Umam**», which was written by Ali Ahmad Ibn Muhammad, known as Miskawayh (d. 421 H), is considered to be among the most comprehensive encyclopedia-like books on world history. It covers the period following Noah's Deluge up until the year 370 of the Hegira. The author adopted neither the comprehensive approach nor the philosophical one, but rather a pragmatic, practical approach as reflected by the title of his book («Experiences of nations»). The book, according to the author, encompassed all the historical events which attest to the achievements of determined people and the shortcomings of the neglectful. Miskawayh, apparently, wanted to present history from a political and experimental viewpoint. He did not mean to be a preacher - though he valued the role of ethics - nor did he want to lay down a philosophical theory or to produce a compilation of tales and other curiosities. Rather, his purpose was to study the ways of running state affairs, to relate cases of wisdom and sagacity and report on the reasons for failure and success. His premises are pessimistic ones ; he does not seek truth nor is he concerned with creation, religion or thought. Rather, he analyzes the development of historical events and their causes. He considers history as a narration of experiences and a sequence of instances which highlight the advantages of resoluteness and the consequences of negligence and plotting. In this respect, Miskawayh represents a major trend in historical and political thought which may have been influenced by Shia esotericism, namely by the Ismaili teachings. This trend also reflects the skepticism of the Islamic political thought in the fourth Hegira century in the face of the constant turmoil and instability that marked that era (7).

Azzeddin Ibn Al Athir figures among the most eminent Muslim historians after Attabari and Al Mas'oudi. Although he was not as good in interpreting history as Al Mas'oudi, he had the merit of including much variety in his beset Andalusia under the reign of princelings. Historians naturally investigated encyclopedia which is just as valuable as «**Tarikh Attabari**» ; it even exceeds it, in fact, because it covers the period up to Ibn Al Athir's death in 630 H.

(6) Dr. Shakir Mustapha «**Attarikh al-arabi wal mu'arrikhun**».

(7) Dr. Shakir Ibid. V. I. p. 409.

His book «**Asadu al Ghaba Fi Maarifati As-sahaba**», which was just as successful as his famous «**Al Kamil**», was a new addition to the art of biography writing. He also wrote «**Al Bahir**» and «**Al-Lobab Fi Tahdhibi Al-Ansab**», which is, in fact, a revised and corrected version of Assam'aani's «**Al Ansab**» (8).

For our purpose, «**Al Kamil**» is the book which best expresses Ibn Al Athir's perception of history. This twelve-volume encyclopedia covered the history of the Mashrek and the Maghreb with unprecedented comprehensiveness. Though he was from the Mashrek, his writings on Morocco and Andalusia were so accurate and comprehensive that they served as a reference to the following generation of historians. Even though his approach was a cyclic one, he would depart from it and list related and complementary events under specific sections.

Ibn Al Athir made it a point to state the causes of some historical phenomena, to investigate some information and to criticize modes of human behaviour. His narration of events was tinged with political, moral and scientific criticism, a fact which made his personality strongly felt throughout the «**Kamil**» (9).

However, the value of the «**Al Kamil**» lies in the selection of its references. Its author was particularly good in summarizing information and in selecting the news he deemed accurate. Nevertheless, some chapters of the book, especially the first one on creation, are rather weak and are marked with exaggeration and fiction (10).

Commenting the usefulness of history, Ibn Al Athir said in the introduction to «**Al Kamil**» : «Man yearns for eternity, hence his preference for the world of the living. Yet, is there a difference between the events he has lived, seen or heard of, and those he learnt about through reading books about his predecessors and men of the past. By simply reading such works, a person becomes acquainted with those eras to the extent of feeling like a contemporary of his predecessors. Thus, kings and those in power tend to avoid injustice and dictatorship once they read about their negative consequences and about the destruction they entail and the bad reputation they bring» (11).

Al Hafid Abu Al Faraj Ibn Al Jawzi (d. 597) pointed out, for his part, in the introduction to «**Al Muntazam Fi Tarikh Al Muluk Wal Umam**» that history and the art of biography writing have two main advantages : first, the narration of the deeds of an energetic and judicious person provides a source of inspiration, and the relating of the consequences of evil and wicked behaviour induces people to avoid similar errors and to protect their souls. Second, the reader apprises himself of remarkable things, including the vicissitudes and

(8) Dr. Shakir, *Ibid*, pp. 2-112.

(9) Dr. Shakir, *Ibid*, pp. 2-112.

(10) *Ibid*.

(11) «**Al Kamil**» (introduction)

vagaries of life, and news in general (12).

2. The Art of History Writing in the Maghreb

With the advent of the fourth Hegira century, historical studies in the western part of the Islamic world, particularly in Morocco and Andalusia, witnessed unexpected developments at the hands of historians such as Abu Bakr Mohamed Al-Qortobi, known as Ibn Al Qooṭia, author of «**Tarikh Iftitah Al-Andalus**». Up to the third century, the task of writing the history of this region was shouldered by historians from the Mashrek, among whom were Ibnu Abdel-Hakam, author of «**Futuh Misr wal Maghreb wal Andalus**», and Abdul Malik Ibn Habib (d. 238 H), author of «**Mubtada' Khalq ad-dunia**».

After Ibn Al Qooṭia, the first attempt at writing the history of Morocco and Andalusia from a cultural and sociological angle was made by the famous historian Muhammad Ibn Harith Al Khashani (d. 360 H) in his «**Tarikh Qudat Qortoba**».

With the advent of the fifth Hegira century, a wide historical movement emerged and signalled a mature approach in terms of the perception of history. Numerous trends appeared, all of which were triggered by the ordeals which beset Andalusia under the reign of princelings. Historians naturally investigated the causes which led to the fall of nations. Chief among those historians were, first, Abu Marwan Ibn Hayan Al Qortobi (d. 469 H), author of «**Al Muqtabas**» and «**Al-Matine**», but also Ahmad Ibn Muhamad Razi and 'Issa Ibn Ahmad Razi, in addition to the historian and philosopher Abu Muhamad Ali Ibn Said Ibn Hazm (d. 406). The latter is credited with the most lucid historical interpretations which marked this era. Like his predecessors, Ibn Hazm considered that the utility of history can be derived from thorough examination of facts and past events. A contemporary historian believes that for ancient Muslim historians, history served purposes of two types : religious and educational. It served to investigate and ascertain the dates of the birth and death of narrators, and hence the validity — or lack of it — of the Hadiths reported by those narrators. The study of history also proved to be instrumental in providing commentary on the Qur'an, and helping to perform religious exhortation and to provide counsel.

Nevertheless, we think that, unlike his contemporaries, Ibn Hazm did not limit the utility of history to these two functions. He further conceived of history as a source of information on the passing away of empires, the fall of prosperous nations, the collapse of strongholds and fortified cities, and the mass-killings of inhabitants. He also viewed history as a means of warning against the vicissitudes of life which caused powerful, oppressive and unjust rulers to perish despite the wealth they accumulated and the armies they mustered. Despite their

(12) Reported from Rosenthal

efforts to keep their riches and high status for themselves and for their progeny, they reaped only blame and incrimination. Such reports teach the virtues of righteousness and good conduct and the pitfalls of wicked deeds and actions. As he learns of the fate of tyrants and other ruthless people, the wise person avoids their errors and seeks more righteous paths. The study of history also serves to fill one's leisure time and to fight boredom, for it is an easy pleasant science (13).

Moreover, Ibn Hazm realized that there was a difference between the deeds of Allah in the universe, and those of man, and that it is man who causes the rise and fall of civilizations. As a result, he analyzed man's action in shaping history in a positive manner and refused to associate between that which is inevitable and activities which are under man's control ; whereas the first is bound to happen, the second is inherent to man and can therefore be affected by him (14). Criticizing fatalists, he said that they misunderstood the terms «qadaa» and «qadar» (fate and divine decree) which imply the notions of organization and regulation more than those of compulsion and coercion (15).

However, Ibn Hazm considers that the freedom of action granted to the individual is limited by moral constraints. He said that he who knew good and wicked deeds would also know that no one can change what God Almighty created in him. Thus he who has the ability to learn will not refrain from learning ; the idiot cannot learn, and the intelligent cannot turn stupid. Similarly, the idiot cannot acquire cognitive intelligence, and the jealous cannot overcome his jealousy, just as the honest person is not capable of envy, and the pervert is incapable of showing mercy. Thus man can change only what God has given him the power to change.

We can therefore rightly say that Ibn Hazm is one of those Muslim thinkers who believe that historical events are triggered by the will of Almighty Allah within the framework of universal dynamics.

The role of man is regulated by that dynamic action and by his innate instincts. Ibn Hazm stressed three factors which, according to him, contribute to a large extent to the rise of civilizations. All of these factors show that history can best be explained from a spiritual and intellectual viewpoint which was emphasized by most Muslim thinkers (16). Though they are necessary, materiel and environmental factors play a secondary role in the making and permanence of civilization.

These three factors are :

(13) Treaties of Ibnu Hazm, Abdelhalim Ouayès — **Ibnu Hazm Al Andaloussi Murrikhan** p. 113

(14) Chapter 3-15 Ibid
see chapters 3-15, Ibid
see chapters 3-51

(15) Chapters 3-42, Ibid.

(16) Ibn Hazm's treaties (**Maratib Al Ulum** p. 78.

1. Faith and Law

Ibn Hazm says : «Each nation needs a faith whereby it can confirm or invalidate judgments». In his opinion, faith is important in that it is similar to the soul which guides man towards positive action, and preserves him against social and moral pitfalls. Furthermore, by improving the human nature, and by guiding man towards good deeds, faith consolidates nations and ensures their continuity and prosperity.

To substantiate his viewpoint, Ibn Hazm portrays life without faith nor law, wherein murder, fornication, injustice, sexual diseases, envy and treachery prevail. Then he concludes : «Isn't law the source of order and justice in the world ? Would not the world be besieged with chaos and ignorance if it had not been for the law and legal restrictions ?».

Ibn Hazm further believes that, without faith or law, man is bound to lose his virtues and his ability for reasoning, logic and understanding, and would not be different from beasts.

Ibn Hazm's concept of faith was a new one. Indeed, there seems to be a consensus among thinkers today on the importance of faith and law for nations. A nation with a specific thought and faith — however wrong some of its perceptions may be — is stronger and more creative than a nation without faith, no matter how considerable the latter's material resources may be.

2. Education and Teaching.

Ibn Hazm believed that education and teaching play an important role in social development and progress. He distinguished between the terms «education» and «teaching», well before modern educationists did. Teaching consists in mere accumulation of knowledge whereas education develops the mental aptitudes and ensures proper behaviour. Among Ibn Hazm's merits was the fact that he managed to reconcile between theory and practice.

3. Ethics.

Ibn Hazm laid much emphasis on ethics and its role in the development and progress of nations. Chief among the ethical standards is truthfulness, which is the very basis of most moral values. He was influenced in this view by the Islamic ideal which calls for truthfulness towards oneself, Allah and other people in general; for truthfulness represents the pivot of the social fabric; without it, social and economic institutions are likely to collapse in the face of the vicissitudes of life and its hardships (17).

For Ibn Hazm, truthfulness implies justice and assistance, while deceit entails all kinds of wicked ills, including atheism. Atheism is a lie, and lies are a form of blasphemy ; they stem from tyranny, cowardice and ignorance. As for

(17) Abdelhamid Seddiki, «Tafsir At-Tarikh». p. 151.

cowardice, it leads to disgrace and humiliation (18). To substantiate his viewpoint, Ibn Hazm quoted the Prophet (peace be upon him) : «The believer may be a coward or a miser, but he can never be a liar» and many similar Hadiths which show that deceit is the source of moral diseases which lead to the corruption of societies (19)..

As for the impact of deceit on civilization, Ibn Hazm said : «It is only because of calumnies and lies that kingdoms perished, that states collapsed and that blood was shed» (20). He then goes on to state instances which highlight the dreadful consequences of deceit on social life (21).

One can be sure to find in Ibn Hazm's history writings some references to several constituents of civilization without which the structural set up of nations is bound to collapse.

He talked at length about Andalusia under the reign of princelings and in times of civil strife. He used this example as a model to analyze the collapse of a nation which had lost its cultural constituents and which was plagued with social diseases.

Nevertheless, we think that these were mere references which did not clearly show the impact of the three above-mentioned factors, namely faith, education and ethics. Lifewise, these factors have been addressed by most Muslim thinkers and historians as well.

In short, Ibn Hazm was among the first Muslim thinkers who tackled the issues related to historical thought from a theoretical perspective. His contribution and that of other historians paved the way for the learned philosopher Ibn Khaldun and enable him to elaborate an integrated philosophical theory on historical thought.

Besides Ibn Hazm, many other historians in Andalusia made attempts at explaining history. Among these were Ibn Abd Al-Barr, author of «**Ad-Durar Fi Ikhtiar Al Magha'zi wa As-Siyar**», who was more a friend of Ibn Hazm than a disciple, Al Hamidi who wrote «**Jadhwat Al Muqtabas**», Saa'ed, author of «**Tabaqat Al Umam**», At-Tartouchi, author of «**Siraj Al Muluk**» and many others.

With respect to biographies, which tackled social and cultural aspects of history more than political ones, these were complete collections on social classes and eminent personalities. Unfortunately, the value of this literary work failed to be acknowledged by many thinkers, such as Zaki Najib Mahmud who criticised it in «**Tajdid Al Fikr Al-Arabi**» and in «**Al Maâ'qul wal-laamaa' qul**

(18) Ibn Hazm's Treaties (Mudawat An-nufus) p. 146-147.

(19) Ibn Hazm, Tawk Al Hamama, p. 86.

(20) Ibid.

(21) Ibid, p. 87-88.

Fi Turathina». He thus failed to realize the role played by biographies in preserving our cultural heritage and social values. Ibn Bashkawal, Ibn Al Abbar and Ad-dabi, who wrote respectively «**As-sila**», «**Al Hulla As-samraa**» and «**At-takmila**» and «**Baqiat Al Multamas**» were considered to be the leading authors in the field of biography writing.

«**Mawsuaat Ad-Dakhira**» written by Ibn Bassam Ash-Shaftarini (d. 542 H), Al Muqarri's «**Nafh At-taib**» and Ibn Al Khatib's «**Al Ihta Fi Akhbar Gharnata**» included biographies which added a cultural dimension to historical writings.

3. Period of Methodological Theorizing

Muhiéddin Ibn Suleiman Al Kafiji (788-879 H) wrote the first theoretical treatise on the science of history. «**Al Mukhtasar Fi 'Ilmi At-tarikh**», written in 867 H, wherein he developed his theory of history, was unprecedented in terms of its methodology, approach and style.

Ibn Khaldun, who preceded him, was interested in historical research, whereas Al Kafiji considered history *per se* as his subject matter (22).

In his «**Al Mukhtasar**», Al Kafiji tried to solve issues related to the science of history and its characteristics, objectives and usefulness. Yet, he devoted most of his work to problems arising from the ambiguity of the Arabic term («*tarikh*») and to the position of history among Islamic religious sciences (23).

Some historians, such as Rosenthal (24) believe that in addition to being ambiguous, «**Al Mukhtasar**» did not introduce any philosophic creativity with respect to the science of history, and that Al Kafiji dealt with history from a classical angle in terms of approach and time considerations. Close examination of the book, however, shows that Al Kafiji displayed a definite awareness of the author in terms of the interpretation of history.

Al Kafiji considers that history concerns events of the past which might be of interest to the reader or else a means of warning, counsel or entertainment. Events may concern Messengers and Prophets just as they may concern the advent of religions, the rise of nations, the occurrence of earthquakes, floods and other natural disasters (25). To prove his point, Al Kafiji quotes the Holy Qur'an : «There is, in their stories, instruction for men endued with understanding. It is not a tale invented, but a confirmation of what went before it, a detailed exposition of all things, and a Guide and a Mercy to any such as believe» (26), and «We do relate unto thee, the most beautiful of stories,

(22) Rosenthal : *Ilm At-Tarikh Inda Al Muslimin*, Arrisala, p. 318.

(23) Rosenthal, *Ibid*, 319.

(24) *Ibid*. p.320-321 (Rosenthal)

(25) Al Kafiji, in Rosenthal, *Ibid*, p. 333.

(26) Surat Yusuf, 111.

in that We reveal to thee this (portion of the) Qur'an» (27).

Al Kafiji refutes the idea of the uselessness of history (28). He believes that history has innumerable advantages. It pinpoints the significance of minor events with such accuracy that it leaves no room for confusion between that which is correct and that which is not. It provides for the rules, criteria and measures whereby events can be weighed, judged and thus become acceptable to the wise and the learned.

Thus, Al Kafiji points out the main function of the science of history, namely observation and recording of unusual events whose narration can be useful in terms of enlightenment and counsel. As for ordinary events and people who do not hold the stage, there is no room for them in history books, or else it is only in connection with general events and occurrences.

Shamsul Dine As-Sakhaoui (d. 902 H), author of «**At-tawbikh Liman Dhumma Ahl At-tarikh**» defined history as the art of investigating facts and their timing. It seeks to find out the secrets of the past ; its subject matter consists of man and time. Investigation is concerned with details within the framework of contingencies lived by man within a given period of time (29).

According to As-Sakhaoui, history is very useful to the enlightened mind which takes interest in the life of eminent personalities; the purpose being to imitate them and deserve their good reputation ... He who knows history is like the person who has lived through all ages and benefited from all experiences (30).

As-Sakhaoui's book complements Al Kafiji's which is much more concise. It introduces a brilliant treatise on Islamic history, its problems and objectives (31).

As-Sakhaoui had a comprehensive approach to history. He believed in the necessity of recording all factors which affected the historical movement and did not limit himself to political or military aspects of history. Like Ad-Dahbi, he believed that proper awareness about the Prophet's «Sirah» and the stories of Messengers, kings, ministers, writers, artists, men of letters, poets, jurists, historians, linguists, physicians, misers, fortune tellers and others is necessary for the recording of history (32).

Al Kafiji and As-Sakhaoui introduced the notion of theorization in history writing on a methodological basis, a fact which contributed to consolidating the foundations which had been set up by Ibn Khaldun. Tanks to Al Kafiji and As-Sakhaoui, history became a science, after it had been worked, at the hands of Ibn Khaldun, into a set of rules wherefrom philosophy had been derived.

(27) Surat Yusuf, 3.

(28) Al Kafiji in Rosenthal, Ibid, p. 335.

(29) In Rosenthal, Ibid, 385,400, 401.

(30) Rosenthal, Ibid.

(31) Rosenthal, Ibid, p. 372.

(32) Al-Ilan, p. 521-522.

VERS UNE NOUVELLE APPROCHE DE L'HISTOIRE

L'HISTOIRE DANS LE PATRIMOINE ISLAMIQUE : ORIGINES ET DEVELOPPEMENTS

Abdelhalim Ouayès^(*)

La phase des sources inventoriées

Les assises de la jeune civilisation islamique se sont stabilisées après la révélation du Coran (cadre civilisationnel, législation, dogme), l'expérience pratique de la Sunna ayant duré vingt-trois années et englobé tous les aspects de la vie individuelle et collective, et après les changements intervenus dans la marche de la civilisation humaine grâce à l'éclosion d'une nouvelle approche - aussi claire que spécifique- de la civilisation. Après le succès obtenu par les Musulmans dans leur projet de donner un nouvel élan à l'Histoire et après la concrétisation de cette orientation qui a permis d'épurer les divers héritages culturels en abrogeant certains modes et en confirmant d'autres, donnant ainsi naissance à une civilisation islamique authentique fondée sur une nouvelle vision humaine de l'Histoire, les Musulmans commencèrent à s'intéresser à l'Histoire en tant que science. Il était donc naturel que leur intérêt fût axé sur leur expérience vécue, à savoir la vie du prophète, qui représente à leurs yeux beaucoup plus qu'une simple histoire de conquêtes, c'est l'événement salubre qui leur a permis de réaliser le changement historique et qui témoigne de leur prodigieuse contribution à la civilisation. La vie du Prophète -que la paix et le salut lui soient accordés- et celle de ses contemporains musulmans sont intimement liées, voir imbriquées. Les Musulmans furent, en quelque sorte, la matière brute qu'il a modelée, le métal qu'il a épuré, l'énergie qu'il a libérée et qu'il a ensuite détournée du mal pour l'orienter vers le bien au sens large, substituant aux tendances individuelles, tribales et nationales des ambitions humaines, universelles.

Il était par conséquent normal qu'une sorte d'émulation s'installât entre les Musulmans qui s'attelèrent à inventorier la «Sira» (vie) du Prophète, en

(*) Professeur associé à la faculté des Sciences Sociales - Université de l'Imam Mohammed - Ben - Saoud, Riad (Arabie Saoudite).

consignant par écrit et avec le plus grand souci d'authenticité ses propos, ses actes, ses décisions et ses qualités.

Ainsi donc, les conquêtes sont partie intégrante de la «Sira», en ce sens qu'elles symbolisent la seule lutte possible contre les forces du mal, et constituent le remède du côté négatif de la nature humaine, celui de l'instinct bestial et immoral.

On ne pouvait faire abstraction de la force. Toute mission qui ignorerait la force serait utopique, vouée à l'échec, car elle ne tiendrait pas compte de la nature humaine qui sous-tend obligatoirement l'existence sur terre de tendances perverses; toutefois, l'usage de la force n'est nécessaire que lorsque le mal à combattre ne peut être extirpé autrement; c'est à dire par la sagesse, l'éthique, l'amour et la mansuétude. La Sira, avant d'être une épopée, fut d'abord une oeuvre de miséricorde.

Les Musulmans enregistrèrent la Sira et les conquêtes d'une façon remarquable. De plus, ils enregistrèrent en annexe les faits de la Jahiliya (la période antéislamique), faits relatifs aussi bien aux généalogies, aux lettres qu'aux divers aspects culturels. Ils consignèrent également les faits concernant la vie des Arabes avant l'Islam, l'histoire des anciens prophètes, celle des Perses et des Romains ainsi que l'histoire des communautés et des nations dont ils avaient entendu parler.

Leurs sources étaient la relation, l'observation, les livres saints et les récits successifs des historiens et de ceux qui s'intéressaient aux religions. Ils furent ainsi les créateurs de l'histoire de la Sira et des conquêtes et les artisans émérites de celles-ci. Ils furent en quelque sorte eux-mêmes leur propre source et n'eurent donc aucunement besoin d'aller chercher ailleurs. Les sources furent d'abord transmises par voie de culte et en tant que modèles avant de devenir histoire par la suite.

La chaîne de référence et le narrateur-tantôt confirmés, tantôt invalidés-ont servi de base à la transmission de la Sira et des conquêtes, considérées toutes les deux comme étant à la fois culte et histoire.

Parmi les plus brillantes figures qui se se sont consacrées à la Sira et aux conquêtes, on peut citer Ourwa Ibn Zobeir Ibn al-Awwam (né en 23H), Abban Ibn Othman Ibn Affan (né en 20H), Mohammad Ibn Mouslim Ibn Chihab Zohri, Walid Ibn Mouslim Abou-l-Abbas al-Amawi (mort en 195H), Saïd Ibn Saâd Ibn Obada al-Khazraji (mort en 123H), Sahl Ibn Abi Khaytama al-Madani al-Ansari (né en 3H), Charhabil Ibn Saâd (né en 24H) et Wahb Ibn Hanaba (mort en 114H).

Ont succédé à la génération des conquêtes et de la mutation historique : Assim Ibn Ameer Ibn Qatada (mort en 119H), Abou Rouh Yazid Ibn Roumane al-Assadi al-madani, allié à la famille de Zobeir Ibn al-Awwam (mort en 130H), Mohammed Ibn Abberrahman Ibn Nawfal al-Assadi (mort en 131H), Mohammad Ibn Chihab Zohri (mort en 134H), Mohammad Ibn Saïb

al-Kaladi (mort en 146H), Massâb Zobeyri (mort en 233H), et bien d'autres⁽¹⁾.

Puis vint la génération des historiens qui établirent les assises de l'histoire en tant que science autonome. Parmi eux figurent Ibn Bakkar Dabi (mort en 222H), Al-jamhi Abou-Abdallah Mohammad Ibn Salam al-Basri (mort en 231H), Yahia Ibn Moain Baghdadi (mort en 233H) et Al Khazzaz Ahmad Ibn Al Hareth (mort en 258H). On trouve ensuite les rapporteurs de la tradition qui assumèrent la plus lourde responsabilité dans l'histoire islamique, à savoir la collecte, l'analyse et la transmission, après authentification, des hadiths du Prophète. Il s'agit de Mohammad Ibn Ismail al-Boukhari (mort en 256H), auteur du livre le plus authentique, après le Coran, de l'histoire des Musulmans, et du premier des six grands ouvrages de référence des Musulmans. En plus de son «Sahih» (l'Authentique), Al-Boukhari est l'auteur de la Grande Histoire, ouvrage contenant les biographies de près de quarante mille narrateurs et narratrices du Hadith, de l'Histoire Moyenne, de la Petite Histoire, de l'Histoire des rapporteurs de la tradition, et d'autres ouvrages historiques et généalogiques. Vient en second lieu l'Imam Moslim (mort en 861H), puis en troisième position Tirmidhi Mohammad Ibn Issa Salami (mort en 279H), ensuite Abou Daoud (mort en 375H), Nissa'i (mort en 303H) et Ibn Maja (mort en 275H). Tous ces chercheurs nous ont présenté la Sira sous un angle historique et nous ont permis de disposer de hadiths rigoureusement authentifiés, à la différence de certains ouvrages prétendus «saints» par leurs auteurs. Ils rapportaient les hadiths dans leurs différentes formes tels qu'ils les avaient recueillis et ne se permettaient guère la moindre modification. Ils n'utilisaient jamais leur style propre et n'interprétaient pas le sens des hadiths, contrairement à ce que nous constatons dans des livres «saints» écrits par certains auteurs sur la base de ce qu'ils avaient retenu, sans faire référence à la chaîne de transmission et sans procéder à l'authentification de la terminologie utilisée. Les hadiths ainsi relatés, sous une forme personnelle et au moyen d'expressions intruses, ne peuvent en aucun cas transmettre la vérité telle qu'elle fut initialement exprimée.

Cette phase est essentielle pour l'intelligence de l'histoire islamique. Car l'exégèse fondée sur des vérités authentiques est loin d'être celle qui repose sur de simples «informations» où la vérité se mêle aux passions, et l'objectivité à la subjectivité.

Là réside la plus grande valeur historique de l'époque dite de la méthodologie du hadith. Selon cette méthodologie, qui a prévalu au cours des premières phases de l'écriture du hadith, la conception islamique du mouvement de l'histoire repose sur des sources et des vérités immuables.

(1) Voir l'étude du Dr. Chakir Mostafa - «At-Tarikh al-Arabi wa-l-Mou'arrikhoun 1/113 et 55 et Dr. Said Ismail At-Tayf.

La transcription systématique, prélude à l'Histoire :

a - Genèse de l'histoire au Machreq

Après l'époque des origines et de la documentation, le champ de l'investigation historique s'élargit. Des écoles d'écriture de l'Histoire firent leur apparition à Médine, en Egypte, en Syrie et en Iraq.

L'analyse historique n'étant pas notre objectif, nous nous contenterons d'essayer de retracer de façon générale les prémices de la science de l'histoire tant au Machreq qu'au Maghreb.

La figure de proue de cette discipline, lors de son apogée, fut sans conteste Abderrahman Ibn Khaldoun qui, dans ses célèbres Prolégomènes, se fit théoricien de l'histoire. Mais un rôle d'importance fut joué dans le même sens par Mohiy Dine Kafiji (mort en 879H), auteur du Précis d'histoire «Al-moukhtassar fi'Ilm Tarikh» et Chams Dine Sikhaoui (mort en 902H), auteur du «Tawbikh li man dhamma Ahl at-Tarikh».

Ibn Jarir Tabari (mort en 310H) est considéré comme le précurseur de la transcription systématique au Machreq. Son œuvre maîtresse «Tarikh ar-Roussoul wa-l-Moulouk» (Histoire des apôtres et des rois), en dix volumes, en fait un maître en la matière. Ce livre délaisse l'analyse historique au bénéfice de la méthode narrative classique. Pour lui, l'histoire est essentiellement le récit de faits matériels et d'événements qui, quoique comportant des vérités et des mensonges, s'obtient par la citation et non par la raison ou les idées.

Pour Tabari, l'histoire est la somme des faits tels qu'ils sont relatés dans les différents récits. Aussi, le chercheur doit-il s'abstenir d'invalider ou de confirmer leurs éventuelles contradictions et doit éviter d'influencer le lecteur en portant un jugement personnel⁽²⁾. Dans son ouvrage, Tabari précise : «Le lecteur de ce livre est averti que je me suis basé, dans tout ce que j'ai relaté, sur des informations que j'ai recueillies et des faits dont j'ai recherché les sources, sans recourir aux arguments de la raison. S'il arrive que le lecteur s'indigne des faits relatés concernant certaines personnes du passé, qu'il sache que nous n'y sommes pour rien et que nous nous sommes bornés à rapporter les faits tels qu'ils ont été transmis»⁽³⁾.

Dans son ouvrage sur l'histoire de la Création, depuis l'expulsion d'Adam du paradis, Tabari évoque l'histoire des prophètes Noë, Abraham et Loth, l'histoire de la Perse et des Romains. Il y relate également la Sira du Prophète Mohammad depuis sa naissance jusqu'au début du quatrième siècle de l'hégire.

(2) Voir Ali Adham - Revue Al-Hilal, n° de décembre 1975 et Mohammad Abdelghani, Hassan, «Ilm at-Tarikh», p.8.

(3) Tabari - «Tarikh Al-Oumam wa-l-Moulouk» 1/5, Edition Dar al-Qamous al-Hadith, Beyrouth.

Le principal avantage de l'histoire de Tabari réside dans la crédibilité de son investigation en matière d'histoire islamique, grâce notamment à sa méthode dite de «référence» qui consiste à remonter aux sources. L'œuvre de Tabari comporte d'autres avantages appréciables, en ce sens qu'elle renferme des informations nombreuses et précises sur l'histoire des Persans et des Romains, rapportées dans un esprit de neutralité, de rigueur et d'objectivité. Toutefois, en dépit du côté positif de la méthode sus-mentionnée, on peut regretter qu'elle ne fût pas renforcée par la critique du texte, ou critique historique intrinsèque, qui soumet les faits à la raison, à la logique scientifique. Par ailleurs, l'on constate que Tabari, dans l'ensemble, se limite dans son «histoire» au domaine politique.

Tabari se refuse à dépasser le cadre de la méthode de «référence», car il estime que ce qui est vérifié par l'authentification de la référence ne peut être rejeté même si le récit est contraire à la raison.

En ce qui concerne la genèse de l'histoire, la démarche universaliste de Tabari peut être considérée comme une étape importante dans l'évolution de l'écriture de l'histoire islamique. L'intérêt porté par Tabari aux prophètes en tant que dépositaires de la vérité -par opposition à l'injustice- mérite la plus grande considération.

Proche de l'époque de Tabari, Aboul Hassan Ali Ibn Hussein Al-Massouïdi (mort en 345H - 957) est allé plus loin dans la recherche des significations de l'histoire.

L'on peut citer parmi les ouvrages de ce dernier «Mourouj ad-Dahab», «At-Tanbih wal Ichraf» et «Akhbar az-Zamane wa man Abadahou-l-Hadathan» dont n'a pu être conservé que le premier tome, constitué, à lui seul, de trente volumes. Les autres ouvrages de Massouïdi ont disparu et seuls nous sont parvenus leurs titres. Cet éminent chercheur fut à la fois historien et géographe; il voyagea beaucoup et fit, lors de ses pérégrinations, des investigations fructueuses. Son œuvre historique fut le fruit de ses longs voyages : il visita le Hedjaz, la Palestine, l'Inde, la Chine, l'Iran, l'Afrique noire et la côte est de la Mer Rouge, et mit à profit sa faculté d'observation pour rassembler tout ce qui lui paraissait susceptible de favoriser une étude approfondie de l'histoire⁽⁴⁾.

L'intérêt de Massouïdi pour l'histoire apparaît nettement dans l'introduction de son ouvrage «At-Tanbih wal Ichraf», dans lequel il commente certains de ses ouvrages qui, malheureusement, n'ont pu être conservés. Il y avait, précise-t-il, cité les faits historiques concernant les débuts de la Création, la dispersion des hommes sur terre, les siècles passés, les nations disparues, l'histoire des prophètes, la vie des souverains et leurs

(4) Dr. Iffat Charqaoui - «Adab Tarikh Ind al-Arab» 264 et Dr. Chakir Mostafa - «At. Tarikh al-Arabi wal Mou'arrikhoun» 6/2, Dar al-Ilm lilmalayne, Beyrouth.

politiques, les cultes observés successivement par les peuples, etc. Il avait également cité dans ces ouvrages, comme il le dit dans la même introduction, les propos de sages de diverses nations sur les raisons de la prospérité et du déclin des civilisations. De même qu'il y avait admirablement décrit l'essor de l'urbanisme, rapporté les appréciations de certaines gens quant à l'âge du monde, les facteurs de la longévité, l'éthique du commandement, la politique religieuse et l'interaction indispensable entre le pouvoir temporel, d'une part, et le pouvoir spirituel, d'autre part. Il avait en outre fait ressortir les causes de la décrépitude des pouvoirs, des Etats et des législations ainsi que la manière dont ils remédient mutuellement à leurs faiblesses⁽⁵⁾.

Ainsi Massouïdi -il n'était pas, rappelons-le, éloigné du temps de Tabari- a réalisé un progrès considérable dans le domaine de l'histoire. Il a rompu avec la stagnation qui prédominait du vivant de Tabari et a proposé un modèle encyclopédique rigoureux faisant appel à la pensée, à une vision globale et à la déduction. Il a sorti l'histoire du cadre politique étroit où elle était confinée pour embrasser d'autres domaines, de la connaissance, notamment l'astronomie et la géographique. Dans sa chronique, il traite également des livres, des diverses ethnies, des hommes et de leurs traditions, et de la médecine. Il a aussi abordé la politique et ses motivations, la guerre, la dialectique intellectuelle, le raisonnement religieux, sans jamais perdre de vue les faits historiques, les rois, les différentes époques et leurs gens⁽⁶⁾.

L'historien Al Moutahar Ibn Tahar al Maqdissi se révéla du temps de Tabari et de Massouïdi. Il est l'auteur de «Al-Bad'wa Tarikh» (Commencement et Histoire), rédigé en 355H. Cet ouvrage figure parmi les premières tentatives visant à présenter une théorie exhaustive qui soumet l'histoire à une vision idéaliste et philosophique⁽⁷⁾. Dans l'introduction de son ouvrage, Al-Maqdissi traite de la connaissance et de la raison et évoque l'histoire de l'univers sous un angle philosophique. Dans le même livre, il souligne l'importance culturelle et intellectuelle des anciennes religions, et essaye de fournir, autant que faire se peut, des informations scientifiques et philosophiques. Ses conceptions de l'histoire sont comparables à des perles qui, bien qu'éparses, ne perdent rien de leur valeur propre.

Peu après Al-Maqdissi, Ahmad Ibn Ishaq al-Yaqoubi prit la relève (mort en 292H) en nous donnant un aperçu global de l'histoire du monde depuis le début de la création. Il consacre, dans le livre qui lui est attribué, «Tarikh Al-Yaqoubi», une place non négligeable aux aspects culturels de l'histoire, et y traite également des découvertes, des us et coutumes. Sa méthode se caractérise par la référence aux sources anciennes, notamment, l'ancien et le

(5) «At-Tanbih wal Ichraf» 3-1.

(6) Dr. Chaker Mostafa - «Al-Tarikh al-Arabi wal Mouarrikhoun», 2/32.

(7) Voir Omar Reda Kahala - At. Tarikh wal Geoghrafia fil oussour al-Islamya, p.3628, imprimé à Damas en 1392 et Dr.C.Mostafa, op.cité 1/407.

nouveau testament, en ce qui concerne l'histoire des juifs et des chrétiens. Son ouvrage est un précis d'histoire savamment élaboré, consacré à l'histoire des prophètes, à celles de la Perse et de la Jahiliya ainsi qu'à l'histoire des nations : Babylone, Inde, Grèce, Rome, Pharaons, Berbères, Abyssiniens, Turcs, Chinois, etc... C'est un ouvrage qui se veut véritablement universel, bien qu'il fasse appel parfois à la mythologie, en raison de la rareté des sources. En outre l'ouvrage nous révèle le penchant alaouite de l'auteur et son préjugé pro-abbasside. Enfin, l'auteur privilégie le côté civilisationnel par rapport à l'aspect politique, et évoque le brassage des cultures de l'époque⁽⁸⁾.

En vérité, nous pouvons néanmoins trouver dans certains ouvrages, qui ne sont pas vraiment historiques, quelques modèles d'approche historique ainsi qu'une description du cadre général de l'activité socio-culturelle de cette époque.

Les écrits d'Abou Othman Al-Jahiz (mort en 255H) sont, sans aucun doute, la meilleure illustration de ce type d'ouvrages.

Parmi les livres d'Al-Jahiz marquant en début de l'approche explicative de l'histoire figurent «Kitab al-Hayawane», «Kitab al-Boukhala» et «Kitab at-Taj fi Akhlaq al-Moulouk» ainsi que les passages parus de son «Tassih al-Akhbar», ses nombreux traités historiques tels «Rissala fi Madhahibi Chîa», «Rissala fi Bani Ommeya» et les traités consacrés aux coutumes des Turcs, à la politique des souverains, au commerce, etc.

Al-Jahiz est considéré parmi les auteurs qui se sont le plus penchés sur les aspects socio-culturels et tenu pour l'un des mieux inspirés en matière d'explication de l'histoire, faculté que n'avaient pas souvent les historiens traditionnels.

Dans son ouvrage «Al-Akhbar at-Tiwal» (les longues histoires), Abou-Hanifa Daniouri (mort en 282H) tenta de reconstituer la chaîne de succession, des souverains de la terre depuis Adam jusqu'à la fin du règne d'Al-Mou'tassim, marquant ainsi une nouvelle étape dans l'évolution de la pensée historique islamique.

Abou-Hanifa, dans ce livre, tient largement compte de la chronologie historique. Mais il s'est basé, dans ses récits, sur une conception particulière de l'histoire mondiale en faisant une large place aux événements et aux mouvements de son choix. Ainsi son ouvrage se présente comme une série de récits qui se suivent et s'enchainent selon l'évolution de l'histoire iranienne qui occupe dans l'œuvre une place prééminente. Il s'est, plus qu'à l'Islam, intéressé à l'histoire des prophètes. Il a présenté une image parallèle de l'histoire du Yémen, de la péninsule arabique et de Byzance et s'est longuement penché sur l'histoire persane. Après avoir survolé l'Islam il a abordé avec un intérêt accusé l'histoire de l'Iraq et de l'Iran⁽⁹⁾.

(8) Dr.Chakir Mostafa - «At-Tarikh al-Arabi wal Mou'arrikhoun», 1/250, 402.

(9) Dr.Chakir Mostafa «At-Tarikh al-Arabi wal Mouarrikhoun», 1/249.

Le livre «Tajarib al-oumam» (les expériences des nations) d'Abou-Ali Ahmad Ibn Mohammad, connu sous le nom de Miskawayh (mort en 421H) est considéré comme l'un des plus exhaustifs et mieux pourvus de dimension encyclopédique, en ce sens qu'il s'étend à toute l'histoire universelle. L'auteur le fait partir de l'ère de l'après-déluge de Noë et arrêter aux environs de 370H. Comme le titre le laisse entendre, l'auteur ne s'est pas encombré des contraintes de l'approche encyclopédique ou philosophique, mais il s'en est tenu à une attitude pragmatique.

Selon Miskawayh, le «Tajarib» englobe «tout ce qui se rapporte à l'histoire selon l'expérience qui dévoile les exploits des gens fermes et démasque les négligents». En somme, Miskawayh a voulu écrire une histoire générale axée sur l'expérience politique, qui exclut tout moralisme. Il n'a pas cherché, ce faisant, à proposer une théorie philosophique ni même à présenter un ensemble cohérent de récits et d'idées. L'ouvrage se présente comme une étude du pouvoir, du fonctionnement des Etats; de l'intelligence et la ruse et des raisons de la victoire et celles de la défaite. Miskawayh part donc d'un point de vue pessimiste, ne cherchant à faire valoir ni droit ni morale ni religion ni pensée et se limitant à relater la succession des faits et à en analyser les causes. Pour lui, l'histoire n'est que le récit des expériences et des exemples proposés de la fermeté, de la négligence ou de la convoitise. Ainsi il apparaît comme imprégné, dans sa pensée historico-politique, des idées, tout au moins de certaines des idées de l'ésotérisme chiïte, notamment ismaélite. Ce qui traduit la position sceptique prise par la pensée islamique au quatrième siècle H (X^e) à l'égard de l'agitation et de la confusion inhérentes à la politique⁽¹⁰⁾.

Après Tabari et Massouïdi, Izz Dine Ibn al-Athir est considéré comme un remarquable historien de l'Islam. S'il n'atteint pas, en matière d'explication de l'histoire, la compétence de Massouïdi, il a le mérite de l'écriture historique et culturelle particulièrement riche et variée. Le livre d'Ibn al-Athir «Al-Kamil fi Tarikh» est une mine encyclopédique qui égale la chronique de Tabari et la dépasse évidemment, du fait qu'elle expose des faits nouveaux : Ibn Al-Athir est, en effet, mort en 630H. Son autre livre «Assad al-Ghaba fi maârifati Sahaba», consacré à la vie des compagnons du prophète, a enrichi la liste des biographies; il n'est pas moins célèbre et n'a pas eu une audience moindre que le «Al-Kamil fi Tarikh». Il a également écrit «Al-Bahir» et «Al-Lobab fi Tahdhib al-Anssab», le second n'étant qu'une œuvre complémentaire de «Al-Anssab», le célèbre écrit généalogique de Samaâni.

En ce qui concerne notre sujet -l'explication de l'histoire- «Al-Kamil» nous paraît constituer l'encyclopédie où nous pouvons déceler le point de vue d'Ibn Al-Athir sur l'histoire.

Dans cette encyclopédie en douze volumes nous disposons d'une étude

(10) Dr. Chakir Mostafa - «At-Tarikh al-Arabi wal Mou'arrikhoun», T.1, p.409.

globale de l'histoire du Machreq et du Maghreb que nul avant Ibn Al-Athir n'avait élaborée. Bien qu'orientale, la partie de son œuvre réservée au Maghreb et à l'Andalousie fait autorité pour ses successeurs.

Ibn Al-Athir a tenu à analyser quelques phénomènes historiques dont certains ont été l'objet de ses critiques. Sa personnalité émerge à travers ses vues et ses prises de position politiques, morales et scientifiques⁽¹¹⁾.

Ce qui, semble-t-il, donne le plus de poids à «Al-Kamil» c'est le fait que l'auteur a choisi minutieusement ses sources. De surcroît, il y résume brillamment les faits et met en relief les références les plus dignes de foi. On remarque, pourtant, des lacunes et bien des exagérations dans la première partie qui traite des débuts de la création et du monde⁽¹²⁾.

Selon Ibn Al-Athir -cf. l'introduction à son Encyclopédie-, l'histoire présente un intérêt certain; il écrit : «L'homme, on le sait, désire l'éternité et préfère rester parmi les vivants (que périr). Qu'y a-t-il qui différencie ce que l'homme a vu hier et ce qu'il a lu dans les livres consacrés aux histoires des anciens et aux événements passés ? Lisant de tels livres, il devient comme le contemporain des anciens. En prenant connaissance de leurs faits et gestes, c'est un peu comme s'il était présent à leurs côtés. Il est significatif que les souverains et tous autres dirigeants (chargés d'ordonner et interdire), lorsqu'ils lisent la vie des tyrans et méditent sur les conséquences néfastes, pour eux-mêmes et les cités qu'ils détruisirent, de leurs actes, s'abstiennent de tels actes répréhensibles»⁽¹³⁾.

Ibn al-Jouzi (mort en 597H) indique dans l'introduction à son «Al-Mountazam fi Tarikh al-Moulouk wal Oumam» que les biographies et l'histoire ont deux grands avantages. Premièrement, la relation de la vie d'un chef exemplaire aide à s'inspirer de lui et à la réussite, de même que la relation de la mauvaise conduite d'un chef et des ses conséquences incite à éviter les mêmes erreurs et à fortifier les âmes. Deuxièmement, le lecteur est renseigné sur les faits insolites, vicissitudes des temps, les impondérables et les nouvelles⁽¹⁴⁾.

Dans le même ordre d'idées, Al-Imad al-Asphafani⁽¹⁵⁾, dans son ouvrage «Al-Fath al-Qassi fil Fath al-Qodsi» évoque l'importance de l'histoire en ces termes : «N'était l'histoire, les actes des hommes politiques, accomplis pour le bien, eussent été perdus et la démarcation entre ce qui est digne d'éloges et ce qui mérite d'être blâmé eût été sans portée. On eût négligé la leçon du destin et oublié que les vicissitudes peuvent cacher la félicité et que celle-ci aussi peut dissimuler la réalité de la difficulté».

(11) Dr.Chakir Mostafa - «At-Tarikh al-Arabi wal Mou'arrikhoun», 122/2.

(12) Dr.C.Mostafa (in op.cité).

(13) idem.

(14) Al Kamel - Al Moukaddima.

(15) D'après Rosenthal 412, Fondation Ar-Rissalah.

L'explication de l'histoire dans le Maghreb islamique

En tournant nos regards vers l'aile occidentale du monde islamique, notamment vers l'Andalousie et le Maghreb, nous observerons un soudain développement de l'étude de l'histoire. Après avoir été l'apanage des orientaux (au III^e siècle H), phase représentée par Ibn Abd el-Hakam, auteur de «Foutouh Misr wal Maghreb wal Andalous» et Abdelmalek Ibn Habib (mort en 238H), auteur de «Moubtada' Khalq ad-Dounâ», depuis le quatrième siècle de l'hégire, les écrits sur le Maghreb et l'Andalousie sont élaborés par les Maghrébins et les Andalous dont le premier fut Abou-Bakr Mohammad Al-Qortobi, auteur de «Tarikh Iftitah al-Andalous» (mort au début du 4^e siècle H).

Puis parut «Tarikh Qodat Qortoba» de Mohammad Ibn Hareth al-Khachani (mort en 360H), considéré comme la première histoire socio-culturelle du Maghreb et de l'Andalousie.

A l'aube du cinquième siècle de l'hégire, apparut un vaste mouvement historique dans lequel la vision de l'histoire mûrit, avec l'éclosion de nombreux travaux consacrés à l'explication de l'histoire. A l'origine de ce mouvement, l'épreuve que les roitelets firent subir à l'Andalousie et qui fit poser ces questions aux historiens andalous : comment survient le déclin des nations ? Quelles en sont les causes ? Parmi les auteurs célèbres, et, les plus en vue des historiens de l'Andalousie, il y eut Abou Marouan Ibn Hayyan Al-Qortobi (mort en 469H), auteur d'«Al-Moqtabas» et «Al-Matine», ainsi que Ahmad Ibn Mohammad Razi, Aïssa Ibn Ahmad Razi, le philosophe et historien Ibn Hazm (mort en 406H) qui défendit la thèse de l'utilité ou de la finalité de l'histoire, qui se dégage de l'étude approfondie des événements. Un historien contemporain pense que les historiens de l'Islam utilisaient l'histoire essentiellement pour s'assurer des dates exactes de la naissance et de la mort des narrateurs de hadiths pour distinguer le vrai du faux hadith et pour mieux comprendre le message du destin (par l'examen conscient du sens de l'événement) et bien expliquer le Saint Coran; cet historien, donc, estime, que l'histoire est utile d'un double point de vue : religieux et didactique⁽¹⁶⁾.

Nous pensons, quant à nous, qu'Ibn Hazm ne s'est pas arrêté aux deux avantages précités. Notons parmi les avantages de la conscience historique selon cet éminent historien, qu'elle permet de connaître la décadence des royaumes, la destruction des cités, la disparition des grandes villes naguère fortifiées et bien protégées, la dispersion parallèle de leurs populations, les retournements imprévisibles de la situation du monde et des peuples, la chute des rois tyranniques et oppresseurs; en dépit de leurs fortunes et de leurs armées et malgré leur volonté de les léguer à leurs descendants, ils tombèrent et plus personne n'entend parler d'eux; leurs enfants périrent et ne demeurèrent que leurs péchés et l'infamie attachée au souvenir de leur passage ici-bas et

(16) idem.

leur sort dans l'au-delà. Cette destinée enseigne la piété et la vertu et nous fait honnir les mauvaises actions. En prenant connaissance des conséquences qui découlèrent pour les tyrans du fait de leurs actes, dont leur odieuse renommée, l'homme sage évite un tel chemin et d'être ainsi de sinistre mémoire: Cette science meuble le temps libre et guérit de l'ennui. C'est une science facile et agréable⁽¹⁷⁾.

Ibn Hazm a parfaitement compris qu'il existait une différence entre l'acte d'origine divine et celui qui est le fait de l'homme et qui détermine l'essor ou le déclin d'une civilisation.

Après ce constat, Ibn Hazm étudia les facteurs qui rendent positif le mouvement historique de l'homme. Il refusa de confondre déterminisme ontologique et action humaine, le premier étant inéluctable et la seconde naturelle, susceptible du meilleur et du pire⁽¹⁸⁾.

Critiquant les fatalistes qui pensent qu'on ne peut rien éviter et que tout est obligatoire, Ibn Hazm souligne qu'au contraire, il nous appartient de gérer intelligemment le monde, la sentence divine étant à la fois jugement et ordre⁽¹⁹⁾.

La liberté de mouvement, précise Ibn Hazm, est régie et limitée par l'attitude morale. Selon lui «Qui sait les composantes des bonnes actions et des mauvaises, comprend que nul ne peut rien d'autre que ce que Dieu -Qu'il soit exhaussé- a créé en lui. Celui qui a pour vocation d'apprendre ne peut s'abstenir d'apprendre. L'idiot ne le peut. L'homme intelligent ne peut commettre de sottise. L'idiot ne peut obtenir l'intelligence cognitive. L'envieux ne peut s'empêcher d'envier autrui.

L'homme intègre est incapable de convoitise. Ainsi le sort en est jeté dès l'enfance. Le pervers est incapable de mansuétude. Tout est de cet ordre. D'où il a été établi que personne n'est à même d'agir que dans le cadre de la faculté mise en lui par Dieu⁽²⁰⁾.

Nous pouvons conclure avec certitude qu'Ibn Hazm fait partie des penseurs musulmans qui estiment que les événements de l'histoire s'inscrivent dans le cadre du mouvement cosmique et de la volonté de Dieu.

Pour Ibn Hazm, le rôle de l'homme est enchaîné à ce mouvement de l'univers ainsi qu'aux facultés innées que Dieu a mises en lui.

Il pense que trois éléments concourent à bâtir une civilisation⁽²¹⁾ :

(17) Abdelhalim Ouayès «Ibn Hazm Al-Andalousi Mou'arrikh» p.3.

(18) Ibn Hazm Al-Andalousi Mou'arrikh» p 131.

(19) Voir 15 - 3.

(20) Voir 52, 51 - 3

(21) Voir 42 - 3.

- 1 — Le dogme et la loi.
- 2 — L'enseignement et l'éducation.
- 3 — La morale.

A propos du premier élément : «A chaque nation est nécessaire une croyance, soit pour affirmer soit pour infirmer»⁽²²⁾. La croyance, pour l'éminent penseur, est semblable à l'esprit qui enjoint à l'homme de construire et purifie sa vie intérieure et la protège des maladies sociales et morales. La foi éclaire l'âme et lui indique le droit chemin -voilà qui conduit à se fortifier pour édifier une nation forte. Une vie sans foi ni loi, souligne Ibn Hazm, est propice au meurtre, à la fornication, à l'arbitraire, à l'injustice, à l'envie, à la lâcheté, à la perversité et à la trahison, autant de vices qui sapent l'édifice de la civilisation. Le monde ne peut vivre que grâce aux lois, sans lesquelles toute science est impossible.

Sans la foi et les lois, dissuasives (extérieurement et intérieurement), l'homme perdrait la faculté de comprendre la raison même et deviendrait semblable à une bête. Le rôle de la foi vu par Ibn Hazm fait de celui-ci un précurseur. Aujourd'hui l'ensemble des penseurs s'accordent à souligner l'importance de la pensée et des lois pour les nations. Une nation possédant une foi et une pensée, même entachées de quelques erreurs, est plus apte, à vivre, créer et prospérer, qu'une nation qui en est dépourvue, quelle que soit l'abondance des ressources de celle-ci.

Quant à l'enseignement et l'éducation, pour Ibn Hazm, ils sont nécessaires à l'édification d'une société et à la prospérité d'une nation. Avant bien des pédagogues, Ibn Hazm a perçu la distinction entre l'enseignement et l'éducation. L'enseignement consiste à cumuler les connaissances. Quant à l'éducation, elle permet de former les caractères, et, partant, des êtres potentiellement bons et utiles.

Ibn Hazm a également souligné l'importance de la morale. Son principal fondement, c'est la sincérité - d'où découlent beaucoup d'autres vertus. L'Islam recommande à l'homme d'être sincère avec lui-même, avec Dieu et avec sa créature. La sincérité lui manquant, une nation déclinerait. Grâce à elle, la structure sociale peut juguler les plus dures difficultés⁽²³⁾. Chez Ibn Hazm, la sincérité implique la justice, alors que son absence sous-tend beaucoup de maux, dont l'athéisme. Or tout athéisme est mensonge et le mensonge est une forme d'impiété. Le mensonge naît de l'arbitraire, de la lâcheté et de l'ignorance⁽²⁴⁾. Le prophète dit : «Le croyant peut être un avare et un lâche, mais non un menteur». Il dit aussi : «L'homme à force de mentir devient un homme au cœur noirâtre». Dans d'autres hadiths, il est souligné

(22) D^r Ahmed Chalbi - Mawssouat At-Tarikh Al Islam wal Hadara Al Islamia», V. 1 p.22.

(23) Rassaail Ibn Hazm (Maratib Al Ouloum) 78.

(24) Abdelhamid Sadiqi - «Tafsir At-Tarikh», 151.

que le mensonge est à la source de bien des maladies morales qui corrompent la société⁽²⁵⁾.

Ibn Hazm écrit : «Les Etats n'ont dépéri, les royaumes ne sont tombés et le sang n'a coulé qu'à cause des calomnies et du mensonge⁽²⁶⁾».

Il cite quelques exemples pour faire valoir que le mensonge joue un rôle néfaste en corrompant la vie sociale⁽²⁷⁾.

Il évoque longuement l'épreuve de l'Andalousie et, à travers cette phase douloureuse de l'histoire des musulmans, expose une explication de l'histoire : une société contaminée par les maladies de la civilisation perd les fondements de son existence.

Ibn Hazm fut ainsi l'un des premiers penseurs musulmans à avoir abordé l'étude de questions relatives à la pensée historique du point de vue de la construction théorique. Les efforts des historiens furent couronnés par l'œuvre d'Ibn Khaldoun à qui nous devons une structuration théorique et philosophique complète de la pensée historique. Plusieurs historiens andalous exprimèrent des idées différentes quant au concept d'explication de l'histoire. Parmi eux, Ibn Abd al-Barr, élève mais non disciple d'Ibn Hazm, qui a écrit «Ad-Dourar fi Khtissar al-Maghazi wa siar», Al-Hamidi, auteur de «Jadharat al-Moqtatabass», Saed, auteur de «Tabaqat al-Oumam» et Tartouchi, qui a écrit «Sirah al-Moulouk».

En matière de biographies, il convient de citer les séries de «At-Tabaqat wal Aâlam» : il s'agit davantage d'histoire socio-culturelle que d'histoire politique. Malheureusement, beaucoup, de gens ignorent l'importance de ce genre d'ouvrage. Le Dr. Zaki Najib Mahmoud, auteur de «Tajdid al-Fikr al-Arabi» et de «Al-Maâqoul wa lamaâqoul fi tourathina» l'a critiqué alors qu'il ignore à quel point de tels ouvrages ont été utiles pour la sauvegarde de notre patrimoine et de nos valeurs culturelles. On peut considérer Ibn Bachqwal, Ibn al-Abar et Ad-Dabiy parmi les hommes les plus illustres d'Andalousie. Les encyclopédies d'«Ad-dhakira» d'Ibn Bassam chaftrini (mort en 342H), Al-Maqarri (mort en 104H), auteur de «Nafh at-Tib» et «Al-Ihata fi Akhbar Gharnata» de Lissane Dine Ibn al Khatib ont enregistré des biographies qui donnent à leur histoire de la civilisation une excellente dimension culturelle.

Phase de théorisation méthodologique

Mohyi Dine Mohammad Ibn Soleiman al-Kafiji (788-879H) est l'auteur du plus ancien essai connu en matière de théorie de la science historique. Ses idées sont défendues dans son livre «Al-Moukhtassar fi ilm Tarikh», écrit en 867H

(25) Lettres d'Ibn Hazm - «Rissalat Moudawat an - Noufous», 146-147.

(26) Voir «At-Tawq», 86.

(27) Op. cité.

(1463). Certes, Ibn Khaldoun le devança, mais celui-ci faisait des recherches sur l'histoire, alors qu'Al-Kafiji s'intéressait à la méthode d'écriture de l'histoire⁽²⁸⁾. Il a tenté d'apporter une vue originale sur la théorie de l'histoire. Dans son «Moukhtassar», le style est alerte et la méthodologie de grande qualité.

Al-Kafiji, dans l'œuvre précitée, s'est exprimé sur les questions relatives aux caractéristiques de la science de l'histoire, à son objet et ses avantages. Mais il a accordé une plus large place aux difficultés afférentes au mot arabe Tarikh (histoire) et à la part de l'histoire dans les sciences religieuses islamiques⁽²⁹⁾.

Certains historiens tels Rosenthal⁽³⁰⁾ ont pensé que le «Moukhtassar» n'a rien dit de la création philosophique dans la science de l'histoire et qu'Al-Kafiji fut ambigu et un historien marqué par la démarche et le temps traditionnels. Or, en lisant attentivement le «Moukhtassar», il est aisé de déceler une réelle conscience de l'explication de l'histoire chez l'auteur. Ainsi Al-Kafiji cite le verset du Coran sur les récits des prophètes et en dégage la signification pour l'histoire⁽³¹⁾. Dieu a dit : «Nous t'apportons les meilleurs récits dans ce Coran que Nous t'avons révélé»⁽³²⁾.

Dans les récits d'Al-Kafiji, à divers plans, sont racontés des faits relatifs aux prophètes et messagers, au cosmos, à la naissance et au dépérissement des Etats, aux cataclysmes, aux tremblements de terre et autres catastrophes naturelles⁽³³⁾.

Al-Kafiji rejette l'idée d'une absurdité de l'histoire. Il écrit : «Elle comporte des avantages innombrables dont la relation par cette noble science, qui en dégage ainsi la signification, de faits partiels. Sans cet apport, n'importe qui pourrait parler sans discernement. Cette science constitue une balance et une loi»⁽³⁴⁾.

Il évoque, d'autre part, la fonction essentielle de la science de l'histoire, qui est de relever les événements insolites, ceux-ci constituant utilité, conseil et appel à l'attention (à comprendre la leçon sous-jacente). Quant aux événements ordinaires -qui n'apportent rien de bien nouveau-, ils n'intéressent pas l'histoire, pas plus que celle-ci ne s'intéresse aux personnes non mêlées aux faits.

Chems Dine Sakhaoui (mort en 902H), auteur de «At-Tawbikh liman

(28) Voir At-Tawq, 87-88 et autres.

(29) Rosenthal- «Ilm Tarikh Ind al-Mouslimine, 318, imprimé par la Fondation Ar-Rissala.

(30) op. cité, p.319.

(31) op. cité, p.320, 321.

(32) Sourate Youssouf, 111.

(33) Sourate Youssouf, v.3.

(34) op. cité. p.333.

dhamma Ahl at-Tarikh», définit l'histoire en ces termes : «l'Histoire est un art de recherche des faits d'une époque et des événements du monde. Son objet est l'homme et le temps. Son investigation concerne les états de l'homme et du temps à la lumière des contingences subies par l'homme dans le temps»⁽³⁵⁾.

Il dit, d'autre part : «L'histoire est éminemment avantageuse et très utile aux hommes épris de connaissance et aux esprits éveillés. Les uns et les autres s'intéressent aux caractères des personnages historiques valables pour les imiter et mériter eux aussi d'avoir une bonne renommée. Celui qui connaît l'histoire est comme celui qui a vécu tous les temps et expérimenté toutes choses»⁽³⁶⁾.

Le livre de Sakhaoui est considéré comme complémentaire de celui d'Al-Kafiji, d'ailleurs beaucoup plus concis. Il est également tenu pour être un brillant exposé de l'histoire de l'Islam, si l'on se donne la peine de le lire très attentivement⁽³⁷⁾.

Sakhaoui pense qu'il est nécessaire de procéder à l'enregistrement de tous les facteurs agissant sur le mouvement historique. Il ne se limite pas à l'histoire politique ou à l'histoire militaire. Il soutient, à la suite d'Ad-Dhahbi qu'il faut, pour aborder l'histoire, bien connaître la Sira du prophète, les récits des apôtres, les histoires des rois, ministres, hommes de lettres, juristes, grammairiens, linguistes, ascètes, juges, enseignants, sages, médecins, avars, parasites, astronomes, marins, etc. Il n'a oublié personne⁽³⁸⁾.

Al-Kafiji et Sakhaoui représentent la phase de théorisation de l'écrit historique sur une base méthodologique pour poursuivre la démarche lumineuse d'Abdarrahman Ibn Khaldoun. Grâce à Al-Kafiji et Sakhaoui, l'histoire est devenue une science, après avoir constitué, avec Ibn Khaldoun, les lois conduisant à une philosophie de l'histoire⁽³⁹⁾.

(35) op. cité. p.335.

(36) «Al-Ilane bi Tawbikh», 385, 400 et 401 - Rosenthal.

(37) op. cité.

(38) op. cité, p.372.

(39) «Al-I'lane, p.521 et 522.